

1092 ✓
51A

الشيء الآخر

والأوضاع الاقتصادية

٥٢٢٠٩

محمد الغزالي

الاستسلام والأوضاع الاقتصادية

ناشر
دار الكتب العربية
مطبعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« فِي سَبِيلِ اللَّهِ »

« وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ »

كلمة الناشر

منذ سنوات كنت أزور « أوروبا » لا في رحلة من هذه الرحلات التي يقوم بها كبراؤنا ترفيهاً عن أبدانهم المترفة ، وتبذيراً لأموالهم المكدسة ، بل سعيًا وراء مصالح في فن الطباعة . فإن رجال الغرب لا يزالون أئمة في ميدان الصناعة يؤخذ عنهم وتقتفى آثارهم . ! وقد لاحظت أن القوم برغم سبقهم العلمي في نواح كثيرة ، لا يدركون عن الإسلام إلا فكرة مشوهة مختلطة بعدد لا يحصى من الخرافات والأباطيل . . .

فدأعت إلى وطني تحدثت إلى من أثق بدينهم وعقلهم من رجالات الإسلام عن ضرورة عرض الإسلام عرضاً سليماً على هؤلاء المخدوعين ، بنصافاً نأجوا أولاً ورجاء صداقتهم له أو دخولهم فيه إذا شاءوا . . .

وقد رحب هؤلاء الأصدقاء بفكرتي ، بيد أنهم رأوا - لكي يسهل لعرض وتصديق الدعاية - أن يأخذ الإسلام قبل كل شيء حقه من أبنائه الذين اعتنقوه ثم أضاعوه ونكسوا رايته وطمسوا حقيقة !!

فيذا قامت للإسلام دولة تحرس الإيمان في القلوب . وتبث العدالة في مجتمع ، وتحنو على المريض حتى يصح ، وإنجأت حتى يطعم ، وتُسبغ ضياء لمعرفة وتغرس مبادئ التفضيلة ، وتدعم جانب الضعيف ، وتتمصّب للإسلام تمصّب الروس للشيوعية ، وتمصّب الأمريكان للرأسمالية . . .

يومئذ فقط نستطيع من أقصر الطرق أن نصحح الأفكار الخاطئة عن الإسلام فننصفه من أعدائه بعد ما ننصفه من أبنائه !!

ودون خدمة الإسلام في أوطانه نفسها مصاعب جمة وعوائق هائلة ،
مرجعها فساد الأحوال الاقتصادية والسياسية ، واختلال الموازين المعنوية
والمعنوية مما يحتاج إل عذاء على كبير

وقد أقدمت منذ سنوات على نشر هذا الكتاب مساهمة مني في الإصلاح
والله يعلم أن حبي لديني ورغبتني في إعزازه هي التي حدت بي إلى هذا النشر .
وقد رأيت أن مؤلفه "مفاضل" قد مضى في طريقه وأصبح طليعة مدرسة من
الكتاب الأحرار تؤيد فكره وتنتهج طريقته . أرجو الله أن يجنبها التزلزل ،
وأن يوفقها خدمة الإسلام وحده .

وذلك ما إليه قصدت .

ثم إن موقف الدولة عندنا من الدين وتعاليمه ينطوى على استغفال
— ولا أقول — على استغفال ظاهر !

فهو استغل ما يعجبها من تعاليمه ، وتهمل ما لا يروقها ، وتحصنه
في دأوى وتتحمس . وتصدت في الأخرى صمت تقبور .

حرم الإسلام مثلاً مسكرات وتخدرات جميعاً . فحدث الدولة فباحث
لدأوى وضمت تجارتها . واستغفلت صحف صدر شاربها في نسي حقدات
ركبت دون كبر ولا نكير ، وحرمت الأخرى ، وحرمت الحدود حتى
لا تسرب منها ، واستغفلت "صحف" صور متعصبها ولم في عذرات
في كمال السجون

كذلك حرم الإسلام شيوعية ورأسمالية معاً . فبجاءت الدولة تستعبد
جانين يحارب معهم حصر لأحر ، كما تحارب حشيش زهابيون . على حين

أنها نسقت آثام الرأسمالية ودعمتها وكرمّت مظاهرها وبجّلت أصحابها مثلما فعلت تماماً بالسكرارى والحانات والمواخير . . . !

هذا هو المضحك المبكى فى موقف حكومات « إسلامية » كثيرة من الدين وتعاليمه .

والعجب أنها لما حاربت شيوعية الأموال ، غضت الطرف عن الشيوعية فى الأعراض ! وقد بدأت الأمة تكتوى بنارها ، وانتقل الفساد من أعلى إلى أسفل ، وتعرض مجتمعا لهزات عنيفة من آثار هذه الحمى التى أصابته ، حمى الشهوات المتاحة لكل طالب ، والأعراض المبدولة لكل شيطان . فإن صبح أن الشيوعية الأولى تحارب لوجه الله فلوجه من تبقى الأخيرة ؟ ثم هناك التهم التى تسكال جزافاً لكل دعوة تسلك إلى الإصلاح أقصر السبل ، تخاصم أساطين الرجعية هنا وهناك . وتحارب العبودية فى الداخل والخارج حرباً لا هوادة فيها ، ما أسرع اتهام رجالها الأحرار بما هم منه براء ! إننا أخلص فى محاربة الشيوعية من سوانا ، لأننا نقدم « الاشتراكية الإسلامية » دواء عاجلاً عادلاً لما تشكو منه البلاد من فوضى واضطراب . بل نحن نعلم أن كثيراً من رجال الشرق الأغبياء يؤلفون — بسوء تصرفهم وشدة جشعهم — خلايا علنية تنشر أخطر المبادئ وتوهى السدود أمام كل غزو !

وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ااعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ .
وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ . . .

محمد عيسى المنباوى

مقدمة الطبعة الثانية

لم تستذل — في هذا العصر — شعوب كما استذلت شعوب الشرق ،
ولم يستغل شيء — في هضم حقوقها — كما استغل الدين ؟ !!
لقد أطقوه حيث يجب عليه أن يسكت ، وأخرسوه حيث يجب أن
يرسل الصراخ العالي ؛ كما يصرخ الحارس اليقظ ، إذا رأى جراءة اللصوص
الوقحين !! .

وبذلك أصبحت الأمة مضیعة بين استذلال عنيد ، واستغلال منافق ،
وأصبح الدّین مسخرأ في مبادین شتى لتسويغ الحيف ، والتقليل من خطره .
فكان حقاً علينا — ككؤمنين — أن ننصف الدين من الأضرار التي
شانت حقيقته ، وكان ثراءً — كموأطنين — أن ننصف الوطن من التآمرات
التي ظمت هله ، وأكلت ثروته .

وكان من أجدد الحقائق بالإفصاح والإيضاح ، أن يعلم الناس غير اليقین .
أن الدين في خدمة الشعوب ، لا في خدمة فرد أو أفراد !!
ومن ثمّ فلا بد من منهج يقود على تحمل مزدوج ، تتمشى فيه جنباً إلى
جنب حماية حقيقة الدين وصيانة حقوق الناس .

إننا نقدر حق الإنسان في أن يعيش حرّاً "عقل وضمير" . ونقدس
آثار الحباقة المختلفة في أن تعيش متكافئة الأسماء . متآخية على سرور وضراء .
متساوية في تحمل من وجبات وأعباء .

ونقدس حق المجتمع في أن يسير في لأمه قديماً ، وأن يتخصص من
الطوائف التي عاقت تقدّمه ، وعشت فيه فلم يستفد منها شيئاً ؛ ويستفدت
هي منه كل شيء !!!

وزيد أن نُصَفَى المنايع التي تستقى الأمة منها هذه الأفكار .
والناس لم يَأْلَوْا أن يُعَرَّضَ الدِّينَ عليهم بهذا الأسلوب الحر ! بل أَلْفَوْا
أن يأخذوا أنصبتهم من الحياة الصحيحة ، بعد تجارب طويلة من أحوال الدنيا .
وبعد كفاح صرير ، مع الطغاة والجبارين .

وقلما استهدى الناس — في أزمتهم الأخيرة — بأشعة السماء ، في تلمس
الطريق إلى الخلاص مما يُعْمَانون ، بيد أن هذا لا يغير من حقيقة الأمر شيئاً ،
فإن هداية السماء للأرض لم تفقد بريقها ولا رونقها .

أما العوائق التي حالت دون نفع الناس منها فقد آلينا على أنفسنا أن
نسقطها إسقاطاً لا قيام لها بعده .

كانت آيات الدِّين تُكْتَبُ في ألواح مذهبة ، ثم تُعَلَّقُ على جدران القصور
أو كانت تصاغ في ألحان عذبة ، ثم رسلها الأصوات الحنون .

وكان رجال الدين الصف الأول في مواكب المظاه الفخمة ، وكانت
الأديان مكلفة أن تبارك الموائد الحافلة ، وتنحني لأصحابها ، وأن تواسى الجماهير
الجائعة وتصبرهم على لأواء الحياة وبأسائها .

حتى ظهر الإسلام فسكف بهذه الأباطيل كلها . ذلك أنها تزوير على الله
وكذب على دينه ، لأن الدين أنزل من عند الله لخدمة الشعوب وحدها .

وايست آياته زينة تعلق على جدران القصور الظالمة ، بل هي زلازل تدك
بنيانها ، وتغل طغيانها ، وما كان الوحي يوماً ، غناء مطربين ، ولا تراويل
دجائين ، وإنما هو نذير المدل ، يصرخ في آفاق الحياة باستنكار البغي والعدوان
« وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلاًَّ لِّلْمَآلِئِينَ » .

وليست وظيفة رجال الدين أن يمشوا في ركاب المظاه ! فهل هذه
إلا وظيفة المتملقين من رجال الدنيا ؟ !

إن رؤساء الأديان المبعوثين من لدن الله كانوا ينشدون المساواة الحقة بين
البشر ، فإذا لم يستطيعوا أن يهبطوا بتنازل السادة ، فلن يمجزوا عن الارتفاع
إلى مستوى العبيد .

« وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَهُمُ الْأُئِمَّةَ
وَنَجْعَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ » .

وليس عمل الدين بين الناس أن يصبر المظلوم على ما نزل به من ضيم
فهذه جريمة .

بل يقول الإسلام لرجل المنصوب منه ماله ، أو المنكوب في عرضه : من
قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون عرضه فهو شهيد

لا تستسلم أبداً . . . إن الدين في خدمتك ، يضع السلاح و يمينك ،
ويضع الأمل في قلبك ، ويضع لإصرار في إرادتك ، ويكلفك أن تستعيت
دون حقاك .

« إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ لَتُمَلَائِكَةُ خَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَدْ وُفِّيَ كُنُفُهُمْ ؟
قَالُوا : كَفَّ مُسْتَضَعِّفِينَ فِي الْأَرْضِ ، قَالُوا : ثُمَّ تَسْكُنُ الْأَرْضَ لِرُؤُسِهِمْ ؟
فَتُجَرَّوْا فِيهَا ؟ » .

إن الله لم يبعث أنبياء ، ليستريح بأصمعه من قذاس من حمة الناس
أو من فادتهم الأعضاء ، إنما يمشو ليستريح شر كرامة

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً بَيْنَ النَّاسِ

وهكذا سبقت مشيئة الله أن يكون بين حمة شعوب . لا ريب
الشعوب واستغلان بيها ، واستغلار أحراهم .

لَسَدَّ مَا عِبَّتْ أُمْرٌ عَلَى أُمْرِهِ . وَذَقْتَ خُرُوقَ زَجْرَتِهَا مِنْ مَسْجِدِهَا

أو . . . من حكامها ، وطلالسا تلفت إلى الأرض وإلى السماء تلتبس
النجدة ! ! ! .

لقد كفرت بالدنيا لما ظلمت فيها ، ثم كفرت بالدين لما رقت معونته
فلم يسمعها .

أما هنا في الشرق ، فلن تتكرر المأساة الدامية ! لن ندع الناس يكفرون
لا بالدين ولا بالدنيا ، سنقدم لهم التأمين الاجتماعى مُشرباً بروح الإيمان الحر
أو الإيمان بالله ، مفرغاً في نظام من الحرية والإخاء والمساواة ؛ ذلك هو الدين
كما أزل من عند الله « سَفَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى
يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ » .

وما كان الدين مخدراً للشعوب ، كما يقول فيه الساخرون : ولا كان
مخدراً للشعوب ، كما يصنع منه المسخرون . ولا مكان معه لشيوعية
ولا رأسمالية . . .

خُطَّتْنَا الفِذَّةُ أبدأ هي . . . مع المظلوم حتى ينتصر ، وعلى الظالم حتى
ينكسر ، وإلى جانب الشعوب حتى تتخلص من آسريها ، وتشار لنفسها
من قهرها . . . !

يا ضحايا الكِبْتِ والفاقة والحرمان .

لقد نزل الدين إلى الميدان بجانبكم ، فضعوا أيديكم في يده .
إن تشناه التي تأمر بإدلاكهم يجب أن نُقَصَّ ، والأوضاع التي تغتال
حقوقكم أن نُقْصَى !

إن الفراع الذي خامر أفئدتكم تحت وِطْاة الاستعباد ، يجب أن تنزاح مُفْتَمَّة
إلى الأبد .

ونحن نعلم أن موجات التاريخ الجارفة ، وثورات الحياة العارمة ، لم تحدث عقيب وقوع المظالم المخرجة ، بل بعد الشعور بِضُرِّها ، والاكتواء بمحرها والغضاضة من بقائها . . .

* * *

تلك سنووظ المشاعر المخدّرة حتى يماودها الإحساس ، ونذهب الأجيال المستقبلية حتى تسير مع مواكب الناس ، ونصرخ في آذان الساهمين الغافلين ؛ « ألا أيها انغوام ويحكم هُبُوا » فقد طال المنام ، وخذوا أنصبتكم من الحياة الكريمة ، فقد ولى عهد الظلام ! .

إن الدين والدينا للعاملين لا للقاعدين . ولن نسمح بعد ليوم أن يتتاع بالدين في سوق الشهوات ، ولا أن يتخذ ذريعة لاسترقاق الأحرار وقهر الشعوب .

فإلى الإسلام الصحيح ، حتى نريح ونستريح .

مقدمة الطبعة الأولى

هذا بحث مجمل في موقف الدين من الأوضاع الاقتصادية ، اعتمدت في موضوعه على الدراسة المجردة لنصوص الدين ، والفهم المستقل لآثاره الثابتة ولم أجنح من هذه الدراسة إلى المقارنة بين نظام ونظام ، أو المفاضلة بين مذهب ومذهب من هذه الأنظمة ، والمذاهب التي تمخض عنها تطور الفكر الإنساني في العصر الأخير ، فليس هذا ما يعنيني ، ولست أملك العُدَّة اللازمة لاستقصاء البحث فيه !

وإنما ألفت هذه الرسالة ، ورتبت فصولها المحددة ، لغاية واحدة . هي إعطاء القارئ صورة صادقة عن الفكرة الذاتية للدين ، والروح العامة لمبادئه ، والموقف الذي قد يقفه بإزاء الأفكار الاقتصادية المختلفة .

وللتأري بمدئذ أن يقارن ويفاضل ، ويستخلص من النتائج ما يشاء وحاشاي بهذا الكلام أن أفهم الدين فيما ليس له ، أو أن أحمله من الآراء مالا شأن له به ، فما إلى هذا قصدت .

كل ما نفيه أن أنصف الدين من سوء الفهم ، وسوء الاستغلال . فقد تكبرت الشيوعية الدين ، لأنها حسنته مخدراً للشعوب ، وهسكناً لآل . طبقت المظلمة ، وصاروا لهم أبناءها عن المطالبة بحقوقهم المضنية وحترت أروسة أمين ، إذ توسلت به إلى أشباع المطامع الجشعة ، ردور الفوارق اجازة . ونوقى انهنسات الحرة .

والدين مظلوم بين من كهره به ، ومن جحدود ! بين اشموعية المنصرفه وأروسة المنعحر !

ولا بد من أن يكشف عن حقائقه ، وأن بين من ماله ، لرد عنه سوء فهمه ، وسوء الاستغلال جريماً .

والسبيل العادلة إلى ذلك ، هي تحديد موقفه من نصوصه نفسها . . .
وقلما تنصرف النفوس عن الدين ، لو عُرِضَ عليها عرضٌ صحيحاً نقياً ،
فإن أسباب الكفر مفعلة عند أغلب المترمين بالدين ، وأكثر هؤلاء كافر
بما لا معنى للإيمان به ، مرتاب فيما تجب الرية فيه .

ونوأتحت لهم الفرصة ، وكشف عن أعينهم الغطاء . ودرسوا الدين كما
أنزل من عند الله ، لا كما أخذ من الناس اُمادوا من أرسخ الناس ديناً
وأعمقهم يقيناً .

ذلك أن الدين — مع الأسف الشديد — مصاب منذ القدم بفسادات
زائدة ، وأفكار فسدة ، شبت جوهره ، وعكرت حقيقته . ولست أرا
الذين الهداة بأضاليل الشياطين الغواة .

وعلينا أن نفصل الحق من الماطن ، ونز نمر الحبيث من الطيب . حتى
لا تختلط ماء المظرات سطحية أسباب الهدى . أسباب الملال
فدا تميز الخير من الشر ، وانفصل كعب الأرض عن وخر سمه
لم يبق ثمة موضع سوء فهم ، أو سوء لاستعمال . أو من شئ تفك
نارين ، لا أقوام من المتطمعين والمتستين . ثوبى هؤلاء لا يسكن في حدث وروحه
لا يلتصق اقتناع .

وقد ورد القرآن هذه حقيقة — شأن الدين — مبرراً فيه من الله
وهو يضاه في حقيقته من يبع وحررت — من
رَأَى رَسْمًا فِي كِتَابٍ أَوْ فِي نَسْرِ زَاكِيَةٍ فِي كِتَابٍ
الْطَّيِّبَاتِ فِي كِتَابٍ مَبْنُوعٍ فَإِنَّهَا فِي كِتَابٍ مَبْنُوعٍ
وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ
وَأَرْضَ وَتَمَيَّزَ تَرْبِهِ فَإِنَّ هَذِهِ كِتَابٌ مَبْنُوعٌ

الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ
وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

أجل فإن حقائق الدين من منابعه الفريدة الأولى ما إن أخذت تسرى في
مجراها من هذه الحياة حتى علق بها من رواسب البيئات ، ومختلفات القرون ،
وجبهالات العامة ، وشهوات الخاصة ، ونزوات الحكم ، ما ذهب بالكثير من
صفائها ، وبقائها ، حتى لتشبه « ماء النيل » في مجراه الأدنى ، لا يصلح للشرب
إلا بعد مجهودات متعاقبة من الترشيح والتنقية ترده « سماوياً » كما كان .
وقد خضع موقف الدين من الأوضاع الاقتصادية لهذه الصبغة العامة ، والسنة
المطردة ، فطن الناس فيه الظنون ، وتولدت من ذلك رأسمالية جائرة ، وشيوعية كافرة .
ومن حسن الحظ أن الاضطراب الذي أصاب الناس في أعمالهم وأحكامهم
لم يؤثر تأثيراً خطراً على المقياس الذي تتناول به هذه الأعمال والأحكام بالنقد
والتخطئة والتصويب .

فمعرفة الحقيقة لا تزال في مقدورنا ، ورسم حدود الدين تنفي ما وراءها
عن حظيره المقدسة ، أمر سهل .
وقد كافح كثير من أئمة الفقه والتشريع والإصلاح على مر القرون ،
لنيل هذه الغاية فنالوها .

على أن الإنسانية لم تزل بحاجة إلى من يوضح هذه الخطوط ، إذا درست بفعل
العوامل المختلفة وتمهد ذلك ضرورة ، لا بد منها المصلحة الدين ، والمصلحة الناس أجمعين
وأقصد بالدين ، الخلاصة التي اشتركت كافة الديانات في تقريرها ، وعمات
ترسانات المتعاقبة على إبلاغها . ثم جاء القرآن الكريم فأفرغها في صيغتها
الأخيرة ، وأعطائها صبغتها النهائية ، وربطها بفطرة النفس السليمة ، والعقل
الرشيد ، ووجه قلب الإنسان ولبّه إليها ، عندها قال :

« فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ »
وعلى نصوص هذا القرآن ، أعتمد في الاستدلال والاستنتاج ، مسترشداً بما قد يرد في السنة ، من شرح وتفصيل .

وأكرر مرة أخرى أن البحث في هذه الرسالة ديني محض ، أضعه تحت أنظار معتق المذاهب الاقتصادية ، ليحكموا بعده الدين أو على الدين . . .

وطريقتنا تقوم على احترام ظواهر النصوص ، والتمشي مع قواعد الدين العامة ، فإن ضروب التأويل التي تعلق بها الكثيرون ليست إلا لونا من تحريف الكلم عن مواضعه ، خدمة لبعض الأغراض الصغيرة ، أو تحاشياً للاصطدام مع بعض السلطات القائمة ، أو تحكياً للعرف السائد والتقاليد المتوارثة في الدين نفسه ، ليُلبس معها ، وينحرف في تيارها .

لقد ورد في الحديث مثلاً : « من جدد عبداً جددناه ، ومن خصى عبداً خصيناه » فجاء قوم وقالوا : إنما قصد الشارع عبداً تحرراً ! !

والغرض من هذا التأويل أن يجر الدين إلى جواز خصي العبيد ! !
وقد انصرفت هذه النسبة بالدين ، حتى حاءت الحضارة الحديثة محرمات النخاسة^(١) وما يقدمها من خصي ونحوه . وهي وما تبعها لم تُحَلَّ في دين من الأديان . بل قد وردت نصوص تحرم اختطاف الأحرار . وتحريم بيعاء تزييق بالكلمة النابية — بئس قتل الرجولة فيهم — .

ولكن سوء الفهم — هنا — فرض على الدين فرضاً ، فتجنى الناس على دين . وجاء الدين — مثلاً — يقرر الشورى في الحكم ، فجاء بعض مفسرين يقول : إن الحاكم يستشير ، ثم يمضي على رأيه ، لا على الشورى .

(١) خطب الأحرار على نحو ما كان يحدث في القرون — بقية

وبذلك أصبح معنى النص يتحمل الشيء وضده !
 فإذا قال القرآن : « وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ » كان معنى الآية يبيح للحاكم أن
 يكون ديمقراطياً وأن يكون مستبداً ! ! ما دام له حق القبول وحق الرفض .
 ومثل هذه التأويلات ترحب بها الحكومات المستبدة في الشرق الإسلامي
 ولعلها نبتت في ظلها وبإيعاز منها .

ومن ثمَّ قال الشيخ محمد عبده — في هذه التحولات البعيدة — : « إنها
 نزغات شياطين وشهوات سلاطين » .
 وقد هونت هذه التأويلات من قداسة الدين وغضت من كرامته ، ولذلك
 نريد أن نجليها عنه .

« فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ » .
 ثم يجب أن نعرف أن هناك أهدافاً كبرى للدين ، يعمل للوصول إليها
 ولا يتخلل أبدأً عن المطالبة بها ، وله مطالب أخرى ثانوية ، تدور مع الأهداف
 الكبرى ، كما يدور عقربُ الثواني في الساعة ، يتجه كل ناحية ، ولكنه — في
 حساب الزمن — خاضع للمقربين الكبارين ، لا يضطرب أبدأً منهما .

وكثير من المتدينين ، وقفوا عند هذه المطالب الصغرى ، فلم يفقهوا من
 الدين ، لا قشوراً ، لا تُغْنِي عن اللُّبَاب ، وقيوداً تنبوعها روح الكتاب .
 وموقف الدين من الأوضاع الاقتصادية ، يتطلب منا أن نحترم النصوص
 الجزئية ، وأن نحترم — كذلك — الدلائل العامة .

فنحن نريد أن ننصف الدين . . نريد أن نداوى بالإيمان ما يراد له أن
 يُدَاوَى بالكفر والمصيان ! !

وسيجد القارئ في هذه الرسالة طائفة من الأفكار الدينية ، أرجو أن
 تكون بدايةً مُوقِّعةً للكلام في هذا الموضوع الخطير .

الطبقات المترفة والطبقات البائسة

الترف والبؤس :

للترف تاريخ يضرب في أغوار القدم .

ولمظاهره المادية والأدبية آثار عرفها المتقدمون والمتأخرون من سكان هذه الأرض .

وللبؤس — كذلك — تاريخ تمتد جذوره في ماضي الإنسانية البعيد .
ولصوره المادية السكتية ، معالم عرفها الأسلاف والأخلاف جميعاً ، وكلا توارداً عاماً الأمرين — من ترف وبؤس — توارداً على أجيال البشر ، لا كما يتوارد الليل والنهار منتظماً ، يستوى الأحياء كافة في الانتفاع بفضائه والهدوء في ظلامه ، بل هو توارد آخر ، جعل ظلام البؤس قسمة لبعض الناس ، يعيشون فيه أبداً ، ويفقدون فيه أبصارهم — إذ أنها لا ترى فيه شيئاً — وجعل شعاع النعمة مشرقاً على بعض آخر .

فهم يعيشون فيه أبداً ، وهم يعمون فيه كذلك . من طول ما يهرُّهم رونقه ، ويأخذ أبصارهم تألقه ! .

وفي ظهور الترف والبؤس ، توجد الطبقات المترفة ، والطبقات البائسة ، ويولد نظام الطبقات ، ويحدث التظالم الفردي والاجتماعي والسياسي ، وتنشأ معاني السيادة والرق ، والقداسة والضمة ، وتقرر شتى التقاليد المرتبطة بهذه الأمور ارتباطاً يقترب ابن المقفع من وصفه إذ يقول :

إِذَا افْتَتَرَ الرَّجُلُ اتِّهَمَهُ مَنْ كَانَ لَهُ مُؤْتَمِنًا ، وَأَسَاءَ بِهِ الظَّنُّ مَنْ كَانَ يَظُنُّ بِهِ حَسَنًا .

فإذا أذنب غيره ظنَّوه ، وكان لِّلْهَمَّةِ وَسْوَءُ الظَّنِّ مَوْضِعًا .

وليس من خِلة هي للغنى مدح ، إلا وهي للفقر عيب :

فإن كان شجاعاً سُمِّيَ أهوج ، وإن كان جواداً سُمِّيَ مُفسداً ، وإن كان حليماً سُمِّيَ ضعيفاً ، وإن كان وفوراً سُمِّيَ بليداً ، وإن كان لسيناً سُمِّيَ مهذاراً ، وإن كان صموتاً سُمِّيَ عيياً .

سر هذا التقسيم :

وَقَرَّ في النفوس : أن تفاوت الناس في اقتسام الأرزاق سُنَّة إلهية ، وأن اقتسام الأمم — تبعاً لذلك — إلى طبقات ، تتفاضل بحسب ما تملك من متاع الحياة وخيراتها ، أمر طبيعي . قصد إليه ندين بل صرح به القرآن الكريم ، وفي تسوية ذلك تساق آيات شتى .

« وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِيهَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ »
« وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ فَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ؟ »
« وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَّانِيِّينَ عَظِيمٍ . أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ، نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ الْبَعْضُ بِالْبَعْضِ سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ » . . .

ونحن نقول : بأن الدين منذ — فجر الخليفة — حرب فكرة تقسم الناس إلى طبقات ، على أساس ما يمتلكون من أنصبة مادية ، جسمية أو قلبية .
والآيات السابقة لا تخدم الغرض الذي تساق من أجله ، ولا يجوز أن يبقى في ظلها نظام الطبقات المعروف بتأتمه ومنزله ومظالمه .

فآية الأولى ، إنما تدل على أن الله استخلف الناس في الأرض ليعمروها وليكدحوا فيها وفاوت بينهم فيما منح من الوسائل الأدبية والمادية التي تعين على ذلك .

فالناس ليسوا سواء في الذكاء والغباء ، وليسوا سواء في العمل والكسل . ومن ثمَّ يجب ألاَّ يتساووا في الأجر المادي والأدبي الذي يأخذونه بإزاء طاقتهم وجهدهم . وذلك معنى الابتلاء الذي تضمنته الآية والتهديد الذي ختمت به .

والآية الثانية صريحة في أن التفاضل في الرزق — إن جاء من أسبابه المشروعة — لا يسوغ أن يكون مُشار جشع وحرص ، يجعل الفاضل بخيلاً به على المفضل ، بل ينبغي أن يرد الممتازون بالمساواة مع ما معهم على مَنْ تحت أيديهم ، من الخدم والأتباع وغيرهم ، شكراً لله على ما ميزهم به من مواهب رسطان .

ويس في الآية ما ينبغي جعل التفاضل في الرزق تابعاً للتفاضل في العلم والفكر بخدمة الوطن والمجتمع ، بل ذلك مفهوم من الآية الأولى ومن غيرها . والآية الأخيرة فهي تشير إلى أن جسم الأمة كجسم الإنسان ، لا بد فيه من رأس مُدبِّر ، وعقل مُفكِّر ، ومن أطراف تُسخر للتنفيذ ، وأعضاء تُستعمل في تحقيق الأغيات المقصودة .

والله دقتة منيرة في كل أنحاء انساني ، فإن الناس لا يصاحون فوضى ، ومسح الأمة لا بد من أنواع لوظائف إلى عالمية وعمنية ، وهي منية وعسكرية ، ورفق ورعية وعلمية ، ومن ذلك أن يوجد القادة والخيار السابق والخير .

رأى في الأوضاع يحذر لكل وخيفة من يستطيع القيام بأعبائها .

ومن ترشحه مواهبه للعمل فيها ، وملكات الناس في ذلك متباينة أشد التباين .
فهذا مهندس المصنع يعمل فيه بعقله ، وهذا عامل مجرد يشتغل فيه بيده ،
وهذا يتبع ذلك فيما يشير به ، لأن هذا يضع التصميم ، وذلك يقود بالتنفيذ .
والخضوع ، ووجب في مثل هذه الحالات ، هو خضوع الحند لأوامر القيادة
فليس هو ألبته تسخير إذلال وقهر ، ولكنه تسخير نظام وعمر .
هو ترتيب يشبه ترتيب الأعداد صعوداً ونزولاً ، ولأن قبل الثاني ،
والثاني بعد الأول .

وتأسيس هذا الترتيب هو التسخير ، هو الكمية المادية وحدها .
في أن الملاحظات في البيئات التي يظهر فيها أثرى والبؤس ، ويوجد
فيها انقسام الطبقات ، غير ذلك .

د يقوم التفوت على مقدم التفوت العتي ، ويستمر برور التسخير
من صيفت التغيرة . وتوضع الموائى الكثرة لعمدة الترتيب ، ويوجد برور
وهو م سيجئته آية القرآن الكريم حين حكمت الاعتراف من نور
رحمى كيت تميز :

لَوْ أَنَّهُ لَوَلَّا بُرْءَ هَذَا الْقُرْآنِ عَلَى رَجُلٍ مِنْ قَوْمِ بَنِي إِسْرَءِيلَ
وَحِينَ زِدْتَ الْأَوْرَاقَ صَبَبًا ، مَعْنَى تَفَوُّتَ عَتَى - وَحِينَ -
أَسَاسُ شُهُومِ : سَاسُ حَقِيرٍ وَغَضَبٍ ، اللَّهُ أَفْخَمَ حَيْثُ يَجْرُ بَرَسَاكُ
وَهَكَذَا يَجْرُ بِرَحْمَةِ أَهْبَا تَحْمِيهَا سَاسُ تَبَصُّرٍ ، عِبْرَةٌ مَعْرُورَةٌ
الْجَائِزَاتُ تَفَوُّتَ الْمَدُونِ بَيْنَ الْأَسَاسِ ، وَهِيَ تَقَرُّسُ عَنِ مَعْنَى مَرِيَّةٍ
وَمِنْ ثَمَّةٍ تُحْفَتُ الْآيَةُ بِهَذَا الْمَذِيحِ رَرَّ حَرَّ بَرَّكَ حَرَّ
يَجْمَعُونَ .

أوضاع معكوسة :

شقان بين ما هو كائن وما يجب أن يكون في بلاد الإسلام البائسة المنكوبة ، بأفانين من الاستعمار الداخلى والخارجى .

إن الغنى والفقر — وحدهما — ميزان الطبقات هنا وهناك . الغنى الذى لا يُعرف من أين جاء ، والفقر الذى لا يُعرف كيف حلَّ .

في مصر شعب تضطرب به سهول الوادى الفسيحة ، يكدح وينصب ليرتاح على ثمار جهوده نفر من الأعيان والوجهاء .

شعب أقعده الشقاء ، وأضراره الحرمات ، وقِلَّةُ أبطرها النعم ، وأغواها الطغيان .

ما هذه الفوضى الشاملة ؟ وكيف تستقر هذه الحماقة باسم الدين ؟

أهذا هو الإسلام الذى يجعل العلم وحده مناط رفعة الدرجة ، ويجعل التقوى وحدها أساس امتياز الأفراد ؟

أفتعطى الأعمال في مصر على أساس الكفاية في العلم والدين ؟ . .
إذا فما أسعد الوظائف بأصحابها ! .

أفينقسم الناس طبقات شتى على هذا الأساس عينه ؟

إذا فما أشقى الفقراء بنباوتهم ! .

أم هي الأوضاع المنقلبة والحقوق المسروقة ؟

أجل إنها كذلك ، ولو استقام كل شيء على وجهه الذى يرضى الله لآرتقت جماهير هائلة من الخسيس الذى تتقلب فيه ، إلى مستوى آخر تسعد به ويسعد بها .

ما أحوج الشرف إلى أن تعمر العداة الاجتماعية ربوعه الخربة ، وأن تنقل إلى الحياة الصحيحة شعوباً أعيأها اللغوب ، وأضناها طول الغلاب . . .

أما استغلال الدين لتجريح الشعوب ما تنقص به من مرارة الظلم وهضم الحقوق ، فهو ضربٌ قبيح من ضروب الإلحاد ، إن لم يكن أقربهما على الإطلاق .

رأسمالية قديمة :

استوقفت نظري هذه الآية الكريمة : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ انْفِقُوا رِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ، قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ؟ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » .

فإنى شعرت بأن التساؤل الذى انطوت عليه الآية ، يتضمن اعتراضاً رأسه لياً صادقاً فى تصوير حالة قائله .

وأدركت أن الفكرة التى يصدر عنها الأغنياء ، فى تصرفاتهم مع الفقراء تكاد تكون — قديماً وحديثاً — واحدة ، لا تتغير ولا تتطور .

وأساس هذه الفكرة الفائرة فى الماضى . الممتدة مع الأيام ، أن الله جعل الأغنياء أغنياء هكذا ، لأن الله أحب لهم أن يستمتعوا بنعمة الغنى ، وأنه جعل الفقراء فقراء هكذا ، لأنه شاء لهم أن يشقوا بمصيبة الفقر .

وأنه قاوت بين الناس ، تخلق المُسْكِرِينَ والمُقْلِينَ ، قصداً فى إقامة فوارق مادية طبيعية بينهم ، على أساس التفوت فى ثرواتهم ، وأنه نادت فضل البعض على البعض فى الأرزاق والمعيش ، فليس يجوز إيجاد أى نظام يصادم هذه الحقائق .

وقد زَيف القرآن هذا الكلام الذى يحمل مسحة من المنطق . بين قيمة أصحابه عندما عقب على تساؤلهم « انْظُمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ؟ بقوله نعم : « إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » .

وذلك أن الأغنياء — في نظر الإسلام — لا يجوز أن يبقى لهم غناهم
كلاملا ، وأن الفقراء ، لا يجوز أن يبقى عليهم فقرهم كاملا .

ولا بد أن يشترك هؤلاء وأولئك ، في إقامة مجتمع ، لا يوجد فيه الرجل
الترف والرجل المحروم ، وأن التفاوت في الأرزاق كالتفاوت في المواهب ،
لا يصح أن يكون ذريعة لإهدار المصلحة العامة ، بل هو وسيلة إلى إقامة هذه
المصلحة وتكليف كل فرد بنصيبه الشخصي منها — على قدر كفايته
الذاتية الخاصة .

حقاً أن الله فضل بعض الناس على بعض ، في الملكات والوظائف
والحظوظ النفسية —

ولا أظن الشيوعيين في بلادهم يستطيعون هدم هذا البدأ الطبيعي .
فهم يعطون القائد أكثر مما يعطون الضابط ، وهذا أكثر مما يعطون
الجندي —

لكن هذا التفاضل في الأرزاق لا يعنى التقاطع بين الناس والتظالم بين
الطبقات ، والتوقع على مُقسَّم الأرزاق .

نقول له : ما دمت قد أفقرت فإيمٌ بُغني ؟ وما دمت قد أغنيت ولم بفقر ؟
بل يجب أن نجعل من ذلك مبدأ تماون تام واشتراك عام ، في بناء مجتمع
يبتنى منه الترف والبؤس ، ويسوده العدل الاجتماعي الشامل .

ومن الأقاويل التي سمعتها في تبرير الحرمان والهوان ، لدى تلقاء الجماهير
الفقيرة ، أن الدين لم يفرض الزكاة في أموال الأغنياء ، إلا على أساس اعترافه
بالفقر والفقراء ، ونظيره إلى ذلك نظرة لا غرابة فيها ولا إنكار ! !

وعلى هذه الطريقة في الاستدلال يمكننا أن نقول : إن الدين لم يفرض
الجهاد على المؤمنين ، إلا على أساس اعترافه بالكفر والكافرين ، ونظيره إلى
ذلك نظرة لا غرابة فيها ولا إنكار ! !

ثم لكي نضمن بقاء فريضة الزكاة والجهاد ، يجب أن نعمل على بقاء الفقر والكفر ؛ وإلا لم يبق للأغنياء والمجاهدين ، عمل يقومون به إيماناً واحتساباً . .

أرأيت كيف تنتهى الحماقة بأصحابها ؟ ؟

إن الله عز وجل لا يحب من الناس ، أن يشرّدوا أو يفسدوا وهو القائل :
« إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْغَبُ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ » .
ولا يحب لعباده كذلك ، أن يشقوا أو أن يفتقروا ، وهو القائل :
« يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ » .

فإذا كان اعوجاج الحياة الإنسانية على ظهر الأرض ، وزينها عن سواء السبيل ، قد أدّى إلى ظهور الفقر والكفر هنا وهناك ، فإن رسالة الدين تقوم على علاج هذا الانحراف ، وتستهدف ردّ الناس جميعاً إلى الإيمان والأمان ، كما تقوم رسالة الطب على علاج الأمراض وقتل جرّائيمها ، فهي لا تهادن المرض لحظة .

وكما تقوم رسالة العلم على محاربة الجهل واكتساح ظلماته ، لا تسكت عن ذلك فترة .

فأقول بصداقة الدين للفقر ، يشبه القول بصداقته للكفر ، يشبه القول بصداقة العلم للجهل ، والطب للمرض !!
إن الخطأ قد يكون طبيعة في البشر .

وتاريخ الإنسانية لا يعدو أن يكون سعيّاً نحو الكمال ، وتخلصاً من الآفات العقلية ، والأوزار الاجتماعية التي تعترض هذا السعى الحثيث .
لكن بقاء الخطأ في طبيعة الإنسان ، لا يرقى بالخطأ إلى اعتباره ضرورة من الضروريات المحتومة .

فمن الخبل أن يُظَنَّ بالدين ميله إلى بقاء الفقر ، لأنه أعدَّ له — مثلاً —
فريضة الزكاة .

أجل ! سيبقى الناس متفاوتين في أرزاقهم ، بعضهم فوق بعض ،
أو بعضهم دون بعض ؛ فتلك سنة الحياة .

ومهما اجتهدنا في تعميم العدالة وتوزيع الخيرات فسيبقى من يستحقون
الرحمة والمطف ، ممن يحيفُ عليهم الخطأ والسيان .

ولن تم الناس حالةً ، يستغنون فيها لحظة ، عن رقابة الدين وبقظة
الضمير ، ما دامت منابع الظلم في شِيَمِهِمْ ، لا يدركها جفاف ! !

الصراع بين الخير والشر

تتضافر نصوص الدِّين الصريحة ، وقواعده العامة ، على تحقيق وحدة الأمة في ظل العدالة الصحيحة .

ونستطيع أن نرى مصداق ذلك (نصوصاً) في آيات القرآن الكريم (وتطبيقاً) في السنوات الأولى من عهد الخلافة الراشدة ، التي يصح اعتبارها امتداداً لعهد النبوة .

أما مراحل التاريخ الإسلامي بعد ذلك ، فقد اكتنفها فتنٌ مرعبة ومظالم دامية . وعملت السياسات الفاشية عملها على مرَّ القرون . لكي تصرف المسلمين عن لبَّاب دينهم ، وتشغلهم نقشور خفيفة الوزن من تعاليمه . فأصبح علمهم بدينهم يكاد لا يتعدى الزُّبد الذي يذهب مع التيار جُفَاءً إلى الحقيقة الخالدة التي تنفع الناس وتممر بها أخلاقهم .

أما القرآن نفسه فقد بقيَ ناطقاً بالحق شاهداً به على مَنْ هجره من الناس ! وإذا كان التاريخ قد خط للعباء الأرستقراطية سِجلاً حافلاً بمهازل الشرف المزعوم ، ومساخر النبيل الموهوم ، فقد جاء الكتاب الكريم بمرض مستفيض ، لما ردَّد القوم من أكاذيب ، وما كبرَّ في نفوسهم من أباطيل . ثم أخذ يكشف حباؤها ، ويفضح زيفها ، ويُظهرُ بطلانها ، ويهزأُ بغرورها .

حتى لتكاد تلمس في ثنايا الآيات أبقاض ما انهدم من نظام الطبقات . وتسمع عند تلاوتها آخر ما أرسلت النُّعْرَةُ الكاذبة من أنفاسٍ قبل أن تفرسها قوى الخير — وهي في طريقها إلى الأرض — حاملة نور السماء !

القرآن والطبقات المترفة :

يرى القرآن وجود الطبقات المترفة ، خطراً دأرياً ، لا يفتأ يهدّد الحياة الإنسانية ، ويملاً سماء مستقبلها بالغيوم والرؤجوم .

ويرى أن تأمين الشعوب على سعادتها وحققها ، يتطلب اتخاذ الوسائل الممكنة ، للحيلولة دون ظهور الترف والترفين .

وقد ذكر القرآن عدة أسباب لتبرير هذه الحطة الحاسمة :

أولاً : يقرر القرآن أن الترفين أعداء كل صلاح ، وأنهم خصوم الحق المتألبون ضده في كل زمان ومكان ، تكاد لا تبت دعوة للحق والشر حتى يتألوا عنها متخذين نحوها صفة أحزاب « المعارضة » . . .

المعارضة الحسيسة التي تريد أن تسكب حديث الخير والعدل ، بحديث الشر والفساد ، وتهيج مطالب العقل ، المتطلع إلى الهدى ، إلى مطالب خوف المتكالب على الشهوات ، وتهبط بظموح الروح إلى الحرية والسكينة ، إلى حضيض المادة شتقة بالرفهية الماعمة ، والجود البليد .

ومن هنا وجّه إليهم القرآن اتهاماً عاماً ، وألحق بهم وصفاً شاملاً :

« وَمَا رُسُلُنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِكُمْ رَسِيدٌ
كَافِرُونَ . وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ عَمَلًا وَوَلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ » .

وهكذا ندّد قرآن بموقف هذه فئة المتعافية ، وهزأ بعنادهم ، بتفكّرهم من متع واستحقيق تفكيرها لدى يراط مجد دنيا وسعادة آخرة بكثرة الأموال والأولاد .

« وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُهَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ » .

وقد فصل القرآن في كثير من سُورِهِ ، موقف الطبقات المترفة ، تجاه كل كتاب منزل وكل نبي مرسل ، فكان التكذيب واحداً للدين الواحد الذي بعث الله به أنبياءه من لدن نوح عليه السلام إلى خاتم النبيين محمد صلوات الله عليه وسلامه .

ومما يُشيرُ العجب تشابه الرد الذي انتظم على ألسنتهم جميعاً حتى لتكاد تجزم بأنهم يشعرون بماطفة واحدة ، ويدافعون عن مصلحة واحدة .

في نوح ورسالته وأتباعه يقص القرآن هذا الرد :

« فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ : مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ، وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدِي الرَّأْيِ ، وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ » .

وفي رسالة هود : « فَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ — الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتَرَفْنَاهُمُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا — مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ بَا كُلٌّ مِّمَّا نَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ، وَلَئِن أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ » .

وفي رسالة صالح :

« قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَن آمَنَ مِنْهُمْ : ائْتَلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ؟ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ

مُؤْمِنُونَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ .

وفي رسالة شعيب :

« قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُولُنَّ فِي مِلَّتِنَا . »

وفي رسالة موسى وهرون إلى فرعون وملئه :

« فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ . . . فَقَالُوا أَنْتُمْ مِنْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنْ عَابِدُونَ ؟ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْذَكِينَ . »

وقد رأيت في رسالة محمد — صلوات الله عليه وسلامه — كيف ضاق المشركون ذرعاً بالقرآن ، لأنه لم ينزل على رجل من القريتين عظيم !! وكيف استهوا و عن آمن به حتى قالوا : « لَوْ كَانَ حَيَرًا مَا سَقَوْا إِلَيْهِ . . . »

وكيف أخرجوهم من قريتهم ، وحاربوهم في مهاجرهم .

« وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ . قَوْمٌ يَأْمُنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ . لَا إِلَهُمْ هُمْ أَشْهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَأْمَنُونَ . . »

ورسالات الإيمان والإصلاح ، التي حمل ولاءها لأبيها ، تهدف إلى مساواة بين الناس . أمه به واحد ، يدين به الجميع ، عاقبة . ويصنع الجميع بما يأمر به وينهى عنه ثم يسأله الجميع — على سواء — في قيمة صروح عبادة وعضية والذوق عنها .

ولكن بين ورثو حبه وتسبط و عدو ، ومردو عن ترف و غرور

والانتفاخ ، رفضوا أن يتقدموا خطوة في هذه السبيل ، حتى ذكر القرآن في معرض الأسف والغضب هذه الحال المنكرة :

« فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ، وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ، وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ » .

ولم يستثن القرآن من الرسالات التي لاقت هذا العنت ، إلا رسالة يونس ولعل قريته خلت من هؤلاء المترفين الموقنين إلى حين !

« فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ » .

ثانياً : يقرر القرآن أن الطبقات المترفة ، مصدر فساد عريض ، ومثار فتن متجددة ، وأنها — بجوار غيرها من طبقات الأمة — تشبه المستنقع الراكد ، لا تزال تهيج منه جراثيم المرض ، وتنبعث منه روائح الحمى .

فإما تدارك المصلحون الأمر فردموا المستنقع واستراحوا منه ، وإما بقي على حاله فاسداً مفسداً حتى يعم الوباء ، ويستشري الخطر وتصاب الأمة بالفناء العاجل ، يلحق كيانها ، ويحطم أركانها .

إن أساس التأخر وسبب الدمار الذي يصيب الأوطان والشعوب ؛ هو من هذه الطبقات .

« وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا » .

ومرجع ذلك إلى أن حياة الترف ، تحول دائماً عن مشاغل العمل وأسباب
الكفاح ، ولا يتسع الميدان فيها إلا للبطالة واللهو .
وطبيعة الشهوات الإنسانية أنها إذا لم تجد حدوداً تقف عندها ،
طفت بأصحابها ، وسخرت قواهم للأغراض الدنيئة .
فإذا كان الحكم يكاد لا يتجاوز حدود هذه البيئات ، فماذا تكون
حال الأمة التي تنكب به ؟ .

إن عدوى انفساد الخلق والاجتماعى والسياسى ، تهبط من أعلى
إلى أسفل وتكون دائرة محكمة من التقليد الباغية ، والمظاهر الفارغة .
فإذا استطاع فرد أو أفراد من طبقة أخرى — بجهدهم وسميهم —
أن يكتسبوا من المال والجاه ما يخرجهم عن حدود الطبقات التى خرجوا
منها ، وينظمهم فى عداد الترفين السعداء ، فإن مسكهم العملى ينسجم
أتم الانسجام مع مقتضيات حياة الترف وتقاليد الترفين ، ذلك أنهم
يتفكرون — على مر الأيام — نشأتهم لأولى ، فلا ينتظر منهم ، لا أسوأ
ما ينتظر من الأوتقراطيين التوقحين .

ولهذه الشهوات الحمراء وقودها الذى تشتمل به ، وإن يكون هذا الوقود
إلا حطام الطبقات البائسة ، بعد أن يراق دمه ، ويستنزف جهده ، ويحرق
عودها ، ثم يرمى بها فى أتون مضامع وانفساء ، لكي ينعم من ينعم ، ويستريح
من يستريح .

ومن ثم فليس أبغض لدى هؤلاء مترفين من كل دعوة توقظ الغوين ،
وتقيم القاعدين ، وتوجه أصحاب الحق إلى حتمهم .

وليس أحب إلى قلوبهم من أن تبقى شعوب جاهلة . لأنهم يذرونها
طريق النجاة .

مريضة ، لأن القوة تخلق روح التمرد ، والصحة توحى بالأمل وتغري بالنشاط .
فقيرة ، لأن ثمرة عملها — إن كان لها ثمرة عمل — لا يبقى منه فضل يتسع
للبنخ والسرف ، أو يسمح بالاطمئنان إلى الترف .

وقد صدق من قال : « ما رأيت إسرافاً إلا وإلى جانبه حق مُضَيِّع » .
وعندما تكون الشعوب بهذه المثابة ، تسقط من أول ضربة يتناولها بها
الاستعمار الخارجي ، وتلك هي علة العلل فيما أصاب الشرق أخيراً من
انهيار وانحطاط .

« وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا
وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ » .

وقد أدرك المستعمرون هذه الحقيقة ، فهدّوا لبقائهم في البلاد التي احتلوها
بانماء نظام الطبقات ، وضمنوا للمترفين ما تصبو إليه شهواتهم ، من حياة رغدة
وتركوا كتل الشعب الكبرى يوج بعضها في بعض ، تطلب الضرورات
الأولى للجسم والنفس والعقل ، فلا تجد من ذلك إلا جرعات ، تسكن ثوراتها أن
ينفجر ، أو تبقى للعبيد الرقيق الذي يحبون به لخدمة السادة . . . فحسب ! .

ثالثاً : ويقرر القرآن أن المترفين أعداء الشعوب ، وأن على الشعوب
التي تريد الحياة الكريمة في الدنيا ، والحياة السعيدة في الآخرة ، ألا تتوالى
هؤلاء الطغاة ، وأن تأبى الدخول في طاعتهم ، والإذعان لأوامرهم ، وإذا كان
مصيرهم مصير القائلين :

« رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ، رَبَّنَا آتِهِمْ
ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا » .

ذلك أن عقلية هؤلاء المترفين ، تقوم على زعم كاذب ، بأن ميراث
الأرض ، وخيرات الدنيا ، وتصريف الأمور ؛ كل أولئك ليس إلا احتكاراً .

لهم ووقفاً عليهم — اختصوا به لأمر يجهله الناس — وأنه ليس على الناس إلا أن يسمعوا ويطيعوا ، وأن يقدموا لهم أنفسهم وأموالهم وحرّياتهم وحقوقهم طائعين .

فإذا حدثت أحداً نفسه بغير ذلك ، فهو حقيق أن ينفي من الأرض ،
— التي عصى أمر سادتها :

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعْمَدُنَّ فِي مِلَّتِنَا . فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَفَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ » .

بل إن هؤلاء القوم ليحسبون أن دعوات الإصلاح والعدالة ، ليست إلا ستاراً ، يختفي وراءه الطمع في انتزاع ما يستمتعون به من سلطان . وكل صيحة تنادى بالإصلاح الاقتصادي ، والعدالة الاجتماعية ، وتُبيحُ لأبناء الأمة أفساطاً متساوية من الحياة الصحيحة ، وتجعل الناس لا يذللون إلا لبارئهم وحده ، تعتبر في عرف هؤلاء الطغاة وفهمهم ، صيحة لمنازعتهم السلطة ، ومشاركتهم الدولة ، ومقاسمتهم الثروة ، يتذبذب في صدورهم — بعد سماعها — منطق المتألهين من آل فرعون عندما قالوا لموسى :

« أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا ، وَنَكُونَ لَكُمْ كِبْرِيَاءَ فِي الْأَرْضِ ؟ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ » .

مثل هذه العقلية الجامدة عن موروثاتها ، المستهينة بحق غيرها في حياة الصحيحة ، لا يجوز أن تلقى من الشعوب إلا سبباً واحتقاراً .

فإذا سؤل الشيطان ببعض الأذلاء الشتميين ، أن يعيشوا هؤلاء أنساعاً

يأكلون على موائدهم ، ويدفعون عن مبادئهم . فهم مع من ارتبطوا بهم في الدنيا والآخرة لكل خزي يتبعه خزي ، وعذاب يلحقه عذاب : « وَبَرَّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْقُونَ عَنَّا مِنَ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ؟ قَالُوا : لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ » .

هذه أسباب — أجمالها — لرأى القرآن في الطبقات المترفة ! ونحن حين نرسل نظرات خاطفة إلى تاريخنا الطويل ، نجزم بأن قوى الشر قد انتصرت في كثير من الأعصار والأمصار . ونرى أن الطبقات المترفة لم تلبث أن استعادت سلطانها ، الذي أفقدها الإسلام إياه ، يوم أن كان الوحي غصناً فتياً ، ويوم أن كان الحق عزيزاً مجتهداً وأنصاره . .

فلما انتقلت مقاليد الأمور إلى عبيد الشهوات ، وجلادى الشعوب ، وقف سير الحضارة المادلة الرشيدة ، بل تراجعت تراجعاً آلياً في نواح كثيرة . . ولو استقرأنا أحوال ثلاثة عشر قرناً ، من الصراع الصامت العنيف بين الحق والباطل ، وبين الظلم والعدل ، وبين الشورى والاستبداد ، لرأينا أن حساب الأرباح ضئيل ، يكاد لا يبين ، وأن حساب الخسائر سيئ لا آخر له ، ولرأينا أدلة واقعية تتزاحم أمامنا ، شاهد عدل على أن الأمم التي تسلم زمامها للمترفين من أبنائها إنما تسلم عنقها لجزار أثيم .

فصّاراه — إزاء الشعب — أن يذكر الله وهو يذبح الناس .

وعلى ضوء هذا التاريخ المؤسف ، يجب أن نفكر طويلاً . . إذا أردنا الحياة النوعية الرشيدة ، ويجب أن نعزم على اتخاذ كافة الوسائل التي تقيم الموازين القسط بين طبقات الأمة ، وأن نغلق الباب إلى الأبد ، في وجوه المتعطلين والمنتهزين .

ذكر إن نفعت الذكرى

تأتى على الأم فترات تنسى فيها مثلها العليا ، وتُمنى بنحسات الحياة ،
وتوافيها ، ويتجه نشاطها العقلي والاجتماعي إلى اللغو والمهو .

هذه الفترات كساعات الإغماء للإنسان الحى ، أو كساعات الدهول
للعقل المفكر !!

إذا ضلت كانت لها عواقبها الخطيرة ، بل إن أخطر ما يعمى الأمر من
انتكاسات وهزائم ، إنما يبدأ فى هذه الفترات العاتية .

وقد أتى على الأمة الإسلامية عصرٌ بل أعصار ، كان ساستها وقادتها
لا شغل لهم إلا البحث عن اللذائذ ، والحرى خدف الشهوات ، وبشباع
النزوات الدنيئة ، بفنون من العبث والمجون !

وولدت جرائم الانحلال فى جسم الأمة يومئذ ، ثم مشى فى دمها ، وه
تزل بها حتى أوردتها سوء المصير .

وكان الشعراء المرتزقون كالصحفيين الأجورين فى هذا العصر ، يمتدقون
الطبقات المترفة ، ويصفون حفلاتها المذمومة وصفاً مغرياً ، ويسكرون سكوت
المقابر ، عن وصف حالة الشعب ، وتصوير أسائه وخسرائه . لأن ثمن كان
يُقدِّق عليهم غداً من دوائر الشان الكبرى . ومن مصريف سرية . ومن
طوائف الكبراء المنتفخين ! .

وبنغ فجور بعض الشعراء فى العصر الأندلسى ، أنه شَفَّ شعراً خلق به
الجمائم فى أغصانها ، وجعل أُنعمه مشبهة لمحبها : فقن :

بَنَ الخُصْبُ بِأَيْسَكِهِ شِدْو

هَلْ قَدْ عَلِمَ وَقَدْ عَهْدَ وَكَانَ

كَامْتَصِمٍ وَمُعْتَصِمٍ مَكَانَ

وهكذا أنطقوا الحمام — وهي رسول السلام — بمدح أقوام كانوا حربا على مستقبلها ، وعلة أصيلة في الهزائم المتلاحقة الشنيعة ، التي سحقت دولة الأندلس ، ومحت معالمها محو لا نظير له في التاريخ .

والمعتصم والمعتضد اللذان ورد ذكرهما في هذا المدح الفريد ، قد تناولهما شاعر آخر من حكماء الشعر البُصْرَاء بأقدار الرجال ، وسياسات الدول ، فذكرهما في معرض السخرية والازدراء ، وقال :

مما يُزَهِّدُنِي فِي أَرْضِ أُنْدَلُسِ أَلْقَابُ مُعْتَصِمٍ فِيهَا وَمُعْتَضِدٍ
أَلْقَابُ مَمْلُوكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا كَالْهَرِيِّ يَحْكِي انْتِفَاحًا صَوْلَةَ الْأَسَدِ

وما أحوجنا — والمظة حافلة في ماضينا الحافل — أن نحشد الأقلام والألسنة ، لتعلن على المترفين حربا لا تنتهى حتى ينتهوا .

فلن تقوم في الشرق دولة عادلة وفيها مترفون ! ولن تبقى آمنة من النكسات المحذورة إذا بقى لهؤلاء المترفين أذنان مُرَوِّجون ، وصحفيون مأجورون ، وشعراء مرتزقون .

هل للرخائل أسباب اقتصادية ؟

العقائد الدافعة إلى العمل الصالح والخلق الفاضل ، هي لبابُ الدين ،
ومحور تعاليمه ، وغاية ما يَصْبُو إليه الدين ، أن يجد الجو الملائم لغرس عقائده
وظهور آثارها من خلق وعمل .

فإذا ضُمَّنَا هذا الجو الرَّحْبَ ، فقد أمكن الدين أن يحقق رسالته .
وإلا فالدين لا يَمُدُّو أن يكون بضاعةً تُبَاع للناس في بطون الكتب ، أو كلاماً
تنقله طائفة من الرجال ، ويكون الدين حينئذ موجوداً على هامش
الحياة فقط .

وقد رأيت بعد تجارب عدة ، أنني لا أستطيع أن أجد بين الطبقات
البائسة ، الجوَّ الملائم لغرس العقائد العظيمة ، والأعمال الصالحة ، والأخلاق
الفاضلة !! .

إنه من المسير جداً أن تملأ قلب إنسان بالهدى ، إذا كانت مَعِدَتُهُ خالية
أو أن تكسوه بلباس التقوى ، إذا كان بدنه عارياً .

إنه يجب أن يُؤْمَنَ على ضروراته التي تقيم أودَّه كإنسان ، ثم يُنْتَظَر
بعدئذ ، أن تستمسك في نفسه مبادئ الإيمان ..

كثيراً ما وجدْتُني أعالج وعظ الناس في بيئات صرَّعها الفقر والمرض
والجهل . فكنت أحرار .. ماذا أقول لهم ؟ .

هل أقبِّح لهم الدنيا ، كما يظن أنه مفروض على علماء الدين ؟ .

إن الدنيا لن تكون أقبح مما هي عليه في أعين هؤلاء التَّمَسَاء .

وحاجتهم إلى من يعرفهم أركان الحياة ، أمسُّ من حاجتهم إلى من يعرفهم
أركان الإسلام ، وجمهورهم لا يدري الأساليب الصحيحة ، للزراعة والصناعة
والتجارة فضلاً عن أن يعرف كيف يعامل ربه وإخوانه و... . حكماء

أعرفهم بالله عز وجل ؟ إن معرفة الله لا سبيل إليها إلا بعد معرفة النفس
فإن من عرف نفسه عرف ربه .

وهؤلاء التمساء مذّهلون عن أنفسهم ، تأثّون عن حاضرهم .
 إن الشعور بالهوان والحرمان ، قد شلّ تفكيرهم ، فأنى يعرفون ربّهم ؟
 أو يشعرون بما قدموا له . إنهم أعجز من أن يقدموا الحساب عن يومهم ،
 فهميات أن يأخذوا الأهبة الحقّة للدار الآخرة !
 أما لأنكر أن وراء حنّياهم الضامرة ، قلوباً فيها إيمان مّا ، وتديّن مّا ،
 لكن قيمة هذا كله تافهة ، لا تجدى على أصحابها كثيراً ، فى الدنيا ،
 أو الآخرة .

والدين الحق لا يؤدى رسالته فى هذا الجو الحائق ، ولا تثمر عقائده
 فى هذه البيئات العقيمة .

فلا بد من التمهيد الاقتصاى الواسع ، والاصلاح العمرانى الشامل ، إذا
 كنا مخلصين حقاً ، فى محاربة الرذائل والمعاصى والجرائم باسم الدين ، وهداية
 الناس لرب العالمين .

أما أن نترك الظروف التى تلد الجريمة حثّ ، تنمو وتتكاثر ، ثم نكتفى
 فى خدمة الدين بالنصائح المجرّدة ، والمواطن المفتعلة ، فهذا فى الحقيقة هو
 العبث المبين .

ولست — هنا — أنكر قيمة التوازع الأدبى ، وأحوال نخس نصير
 الإنسانى حقه ، فقد توجد أحوال شديدة توقف الإنسان على شفا جُرّابٍ هارٍ
 وتطلق فيه غزائره الدنيا ، ويتصفر الحرمان والإغراء على سوقٍ لئيمٍ ، فى
 الجريمة سوق عنيفاً ، ومع ذلك يتراجع عنها ، ويستفكف مة رقيب . وتتصر
 مواهبه العليا آخر انراع .

غير أن هذه الأحوال لا يجوز انتظارها من كوةٍ شر . بل لا يجوز
 انتظارها من إسان لا يضيء الإيمان فيه ، مهما بلغ فضله ، ورزقه .
 وخير لنا أن نتعرف الأمور من وقائع الدنيا . وأن نقرر أن نسبة

الكبرى من الرذائل تعود إلى واحد من ثلاث الفقر والجهل والمرض ،
أو إلى اثنين من هذا الثلاث البغيض ، أو إلى أفرادهم جميعاً . وأن زوال هذه
الآفات الإنسانية ، يخفض نسبة الجرائم في بلادنا ٩٠ ٪ .

ونحن نعرف أن في مصر آلافاً من العلماء الذين ينتمون إلى الدين
وينبشون في معاهده ومساجده ، وينطلقون في الدائن والقرى ، يبشرون
ويخطبون .

فهل وصلنا — بعد هذا المجهود المادى والأدبى الواسع — إلى درجة من
الرقى ، والسلامة الاجتماعية ، كالتي وصلت إليها بعض الدويلات الأوروبية
مثل سويسرا مثلاً ؟ كلا !

فشتان بين عدد الجرائم عندنا وعددها عندهم .

وما أضخم القضايا التي تنظرها المحاكم عندنا ، من جنایات ، وجنح ومخالفات !
والعلة الأصلية في هذا أن اختلال التوازن المادى والأدبى ، مكن
لشياطين الإجرام أن تعمل وتفجح .

فكيف لا يتدخل الدين في تغيير هذه الحال ، إن أراد لنفسه البقاء ،
ولرسالة التحقيق ؟

بل كيف يستغل الدين لإبقاء هذه الحال المنكرة . وهل معنى ذلك
إلا أنه ينكر نفسه ويخفض رأسه ويحفر رَمْسَهُ ! ! ؟
ولنضرب مثلاً بيمض الجرائم الشائنة لرى مصداق ما قلنا .

السرقنة :

جريمة خلقية واجتماعية كبيرة ، رتب عليها الدين عقوبة دنيوية ، تتراوح
بين قطع اليد ، وقطع العنق ، عندما تكون السرقة في الخفاء ، وعندما تكون
السرقنة بالإكراه (قطع الطريق) .

وعقابٌ كهذا ليست به شائبة قسوة ما دام القصد من تنفيذه تأمين الحقوق ، وصيانة الجهود ، وتوجيه الناس إلى العيش من كسبهم الحلال ، لا السطو على كسب غيرهم ، والعيش به من حرام .

ولكن هذه الأغراض كلها تذوب في مجتمعنا الذي يزخر بأسباب التملك الباطل ، ووسائل الاستغلال المريب .

فإذا قامت حول الجريمة شبهات ، تجعل العقاب لا يحقق هذه المصالح وجب إيقافه .

ومن هنا أمر النبي صلوات الله عليه وسلامه أن ندرأ الحدود بالشبهات وأمر عمر رضي الله عنه أن يعطل إقامة حد السرقة في عام المجاعة ! ورأى أئمة الفقه أن دعوى الملك في المسروق ، تمنع من الحد — ما دامت شبهة الملك معتبرة .

وقصد الشارع من وراء هذا الاحتياط لكي لا تقطع إلا اليد الظالمة الآثمة . يد اللص المعتدى على حق غيره يسرفه ، غير قانع بما عنده ، وهو يكفيه ويفنيه .

وانجرمون الذين يُعدُّون من هذا النوع قلائل . . بل إنهم يعدون على الأصابع من بين الآلاف ، التي تقدم إلى المحاكم . .

روى مالك بن أنس في الموطأ أن رقيقاً لحاطب سرقوا دقة لرجل من مريضة فانتحروها ، فرفع ذلك إلى عمر بن الخطاب ، فمر عمر كُثَيَّر بن حصت بقطع أيديهم . . . !!!

ثم قال عمر أراك تحبهم ؟ والله لأعز منك غرماً يشق عليك .
ثم قال للمزني كم ثمن ناقتك ؟ فقال : قد كنت — والله — أؤمنها من أربعائة درهم ! . فقال عمر لحاطب : أعطه ثمانمائة درهم . . . !

قال ابن وهب . إن عمر — بعد أن أمر كثير بن الصلت بقطع أيدي الذين سرقوا — أرسل وراءه من يأتيه بهم (ليرفع الحد عنهم) .
فلما جىء بهم قال لعبد الرحمن بن حاطب : لولا أنى أظنكم تستعملونهم وتجميعونهم حتى لو وجدوا ما حرم الله لأكلوه لقطعتمهم .
ولكن والله إذ تركتهم لأغرمناك غرامة توجعك . . .
من هذا الأثر ترى أن عمر فهم تشريع القطع على حقيقته .
فهم أنه عقوبة رادعة لمن يرتكب هذه الجريمة من غير حاجة تلجئه إلى مال الغير .

وحين تبين له أن هؤلاء الغلمان اضطروا إلى السرقة — لما نالهم من جوع وحرمان — أبعد الحد عنهم .

وإذ أسقط الحد عن هؤلاء المرهقين ضاعف العقوبة على رب المال الذى أساء الامتلاك ، وكان — بآثره — علة هذا الاضطراب فى المجتمع . . . !!
والاضطراب الاجتماعى الخطير فى هذا الوادى ، هو الذى يَصم بالاصوصية أقواماً ، كان من الممكن ألاَّ يُوصَمُوا بها قط ، يُبْرِئُ من الاصوصية أقواماً ، كان ينبغى ألا تنفك عنهم أبداً .

ولعل من أيسر الأمور إقامة مجتمع ثَقُلَ فيه جرائم السرقة ، أو تختفى ، لا بالإرهاب والقطع والقتل ، ولكن بمنع الأسباب غير النفسية ، أى بمنع الأسباب المادية ، التى تلجئ إلى السرقة فى أغلب الأحيان .

عندما تفتح أبواب العمل ، وتضبط مصادر الكسب ، وتحدد أسباب الملكية وقيمتها ، وعند ما يعرف نور الحياة ونور العلم طريقه إلى المشردين من أبناء الأمة ، وعند ما يحول تعطل الطبقات المترفة إلى عمل ، وتستثمر أموالها فى الشروط التى يفيدون بها ويفيدون منها . . . عندئذ تقل جرائم السرقة حقاً ! ويومئذ يستحق السارقون أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف .

المرئاة :

جريمة خُلُقِيَّة واجتماعية بالغة الفحش ، ولعل الاختلال الاقتصادي — بما
يخلقه من بؤس وترف — أهم الأسباب المؤدية إلى انتشار هذه الجريمة ، حتى
نظم القانون^(١) العام وقوعها وأوقات ارتكابها ، ومع من ترتكب ، واعتبرت
أسواق البغاء المَكْنِيَّ وحفلات الليالي الساهرة ، من الأمور المعقَّدة للطبقات
الصغيرة وللطبقات الكبيرة ، غير آبهين للصياح المحتق ، الذي يُرْسِلُه رجال
الدين ، بين الحين والحين .

ومواجهة هذه المشكلة لا تكون بالاستنكار السببي ، فما أسهل هذا
الاستنكار على مغموذي الخطب الوعظية ، وما أحقر أثره في تغيير الواقع الأثيم .
إن الشهوة الجنسية لا بد أن تتحرك ، فإذا لم تنح لها الحركة الطيبة ، لم يبق
أمامها غير الحركة الخبيثة .

والمصمة المؤقتة أو الدائمة عند بعض الرجال الفضلاء ، أو الرجال الهدئين ،
لا يصح الالتفات إليها عند وضع تشريع عام ، يراد به حفظ عذف الأمة ،
وصيانة قوى الشباب المادية والأدبية والعقلية .

فإذا أردنا — باسم الدين — قمعَ هذه الحركات الخبيثة لشهوة جنسية .
فيجب أن نيسر ، وأن ننظم أسباب الاتصال الجسدي الحلال ، وأن نغرس من
العمل على وضع الحلول الصحيحة لهذه المشكلة المعقَّدة ، ولئن يكون ذلك
إلا بإعادة النظر ، في فهم حقيقة الزواج ، والأساليب المعسرة ، التي
يتم بها الآن .

(١) صدر بعد ذلك قانون بتعريم البغاء ، ومع عص النظر عن المنعج مرتفعة من
التشريع المفاصر ، نرى أن له بقية ما تأت منه ، فهناك حفلات رقصية ، وسهرات
العابثة ، والليالي الحمر ، وإلهاء قوايين شعب لا يمي عن إلهاء تفليم بقاء ؛ فهي منه تُخَصَر.

والطبقات الفقيرة والمتوسطة ، تواجه مع الزواج ثلاث مشاكل ، فالهر عقة ، وقد يسهل اجتيازها ، فتبقى مشكلة الدَّخَل الواسع ، الذى يكفل حياة أولاد ، تجب تغذيتهم وتربيتهم على خير وجه .

وهذه كلها عوائق اقتصادية ، لا يقوى الدين بالكلام على حلها . وإنما يفرغ الدين منها ، عندما يبنى المجتمع ، الذى لا يبقى فيه فقير ولا حقير ، والذى يقدم للفرد الضمانات المعقولة ، لكفالة أسرته ، ورعاية مستقبلها والذى يسخر فيه إنتاج الأمة ، لإسعاد الأمة كلها ؛ لا لترف بضعة أفراد منها ، فإذا تم ذلك ، تم القضاء على نسبة ضخمة من جرائم الزنا ، وإذا صودرت أسباب الترف لدى المترفين ، تم القضاء كذلك على جزء آخر من مظاهر الفسق والخلاعة والتحلل .

فمن أبى إلا ارتكاب الفاحشة بعد أن مهدَّنا له طريق الفضيلة ، وَجَبَ جَلْدُهُ أَوْ رَجْمُهُ ، بل وجب قتله رَمِيًّا بالرصاص ! .

التعطل :

هو جريمة خلقية واجتماعية ، تصاب الأمم من جرائمها بشر مستطير . وقد نهى الدين عنه ، ووصى بأن يعمل المرء أىَّ عمل يقيمُ أودَّه ، ويحفظ حياته وكرامته .

والتعطل نوعان : تعطل المترفين ، أصحاب القناطير المقنطرة من الذهب والفضة .

وقد أشرنا إلى الأضرار الناجمة من ترك هؤلاء بلا عمل يشتغلون به ، والنكبات التى تصيب الشعوب والأمم من وراء تبطلهم ! . .

ولما كان لابد من سد ذرائع الفساد ، وجب الحَجْرُ على هؤلاء السفهاء ، وضغط حرياتهم الشخصية ، حتى يتحوَّلوا أفراداً منتجين ، وحتى تكون ثروتهم المدخرة ، مصادر خير لهم ولغيرهم .

وهناك تعطّل آخر منتشر بين الطبقات الفقيرة ، وينتظم الألوف المؤلفة من أبنائها ، وتأوى إليه جرائم التسول والتشرد ، والفساد والعدوان .
وحاجة هؤلاء إلى العمل الشريف لا ريب فيها ، وفائدة الدولة من استغلال هذه القوى المضيفة لا ريب فيها كذلك .

ومن المستحيل قطع دابر هذا التعطل بالنصائح والتذكير ، مهما ارتفعت فيها حرارة الإخلاص ، ومهما سيق فيها من آيات الله والحكمة !!
لأن الضوائق الاقتصادية الناشئة عن طغيان الاستثمار الداخلي مُحْكَمَةٌ الحلقات ، بل هي تخلق التعطل خلقاً ، وستظل السبل مَلَاًى بالمتعطلين والمتسولين ، الأصحاء منهم ، أو أصحاب الماهات ، إلى أن تفض هذه الحلقات المضروبة ، وإلى أن يصبح العمل خريبية يلزم بها كل فرد ، فإمّا دفعها واستحق الحياة ، وإمّا دفع دونها دمه وأخلى الطريق للعاملين .

وقد سُنّت أخيراً قوانينُ للعمل ، هي دون مثيلاتها في أوروبا ، وحددت أجور العمال في مصالح الحكومة .

ولكن العمال الزراعيين يشتغلون شهرين من العام بأثقل الأجور ، ثم يتعطلون سائر العام .

والعمال في شركات الاحتكارياً كلون لقمته مغموسة بالسّم — كما يقولون — .

وكثيرون من أبناء الأمة موارد رزقهم مبهم ، ونهاية حياتهم مظلمة .

ولو وجد هؤلاء أبواب العمل لاقتحموها ، ولكن إنتاجهم فيها

مَضْرِبُ الأمثال . . . !

أُسْرُ وقاعدة :

هذه صورة سريعة لبعض الرذائل الخلقية والاجتماعية ، التي يضطرب فيها

مجتمعنا ، والتي تمخّضت عنها الأوضاع الاقتصادية المعوجة عندنا .

ولو ذهبنا نستقصي أسباب الكثير من المعاصي الدينية ، لَوَجَدْنَا الضمير
الإنساني يُعَانِي مِحْنًا قاسية ، وَلَوَجَدْنَا الفطرة الإنسانية لا تلبث -- وهي
في سذاجة الطفولة -- أن يدركها من الشقاء ما يطمسها .

فإذا تخطت إلى دور الرجولة ، حالت خلقاً آخر لا تنتفع به دنيا ولا ينتفع
به دين ، خلقاً يقارف الرذائل والمحقر من الأمور ، ويعيش لها عيشته المشوهة
الناقصة ، حتى يوارى في بطن الثرى ، فلا تسمع له رِكْزاً .

أحلال هذا أم حرام ؟ إن رجلين عاقلين لا يختلفان في حرمة هذه الحالة
وقد وضع أئمة الفقه الإسلامي قاعدة ثابتة هي أن : « كل ما أدى إلى الحرام
فهو حرام » . فلا بد إذاً من إعادة التوازن الاقتصادي ، على أساس لا تبقى معه
هذه الموبقات ، ولا تتوطن فيه هذه الفاسد الشائنة .

فإذا لم نفعل هذا ، فأخوف ما أخافه أن يُنْكَبَ دِينُ اللَّهِ ودنيا الناس
جميعاً ، نَكْبَةً ساحقة ماحقة ، إذ تُتَّهَمُ الدنيا بالظلم والطغيان ، ويُتَّهَمُ الدِّينُ
بالسكوت على الظلم والجور أمام الظالمين .

وينبغي أن لا ننسى — إذ نقرر هذه الحقيقة — صيحات رجال الثورة
الفرنسية : « اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر فسيس » ! .

فقد اعتبروا الدين متآمراً مع الأورستقراطية ، على قتل الشعب وإهدار
حقوق الإنسان .

ويقول القرآن الكريم — محذراً من عواقب هذا الاحتلال
الاقتصادي — :

« وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا
آخَرِينَ . فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَانَا إِذَا هُمْ مِنْهَا بِرُكُضُونَ . لَا تَرْكُضُوا
وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ . قَالُوا

بَاوَيْدَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ، فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ
حَصِيداً خَامِدينَ

وَأنت تسأل إذ تقرأ ذلك : ما السر في أن يُناقش الظالمون الحساب
في مساكنهم ، التي قضوا فيها حياتهم الآثمة ! ثم لا تلبث أن تدرك الحكمة
البالغة في أن تكون ساحة المحكمة هي الديار التي شهدت المجرم باغياً عاتياً .
وهل أدلُّ على إشعار الجاني بما اقترف ، من أن يكون استجوابه أمام
جسم الجريمة ومادتها ؟

وإذا فَلَيْسَ حساب الترفين ، أن تعرض أمام أعينهم مظاهر من دنياهم
المسرورة ، وإلى جانبها مظاهر ، من ديا البائسين المقهورة .
ثم يؤخذ من المقارنة بين الحالتين ، نصُّ الاتِّهام ، ودليل الإِجرام .
وسوف يذوق الجاني عقابه آجلاً ، إن أُفْلِتَ منه عاجلاً ،
والظلم — أبداً — تَرْتَمُهُ وَخِيمٌ .

مساواة وإشعاع :

فد يقال : أين هي آثار نظام الطبقات ، وما هذا الكلام عن الأوضاع
الاقتصادية المختلة ، مع أن الناس جميعاً يأخذون أنصبتهم من الحريات العامة ،
بأقساط متساوية . وهم — مهما تفاوتوا — سواء أمام القانون ، كما نص
على ذلك الدستور ؟؟

وهذا كلام قد تبدو عليه مسحةُ الصحة ، ولكنه في باطن الأمر عليل !
فليس القانون الموضوع — ليتحاكم الناس إليه — هو كل شيء ، حتى يذكر
هذا الاعتراض .

فهناك تقاليد مقررة ، ومبادئ قائمة ، هي أعمق أثراً ، وأشد نفاداً
في بيئاتنا كلها ، أقامت من الفوارق بين أبناء الأمة الواحدة ، ما يتعذر معه
أي إصلاح .

ولقد أقت سنوات في المدن ، وسنوات في الريف ، فرأيت أعراض هذا الداء متفشية في كل مكان ، وتأكدت من أن كرامة الفرد محدودة الثمن ، يشترها ويدوسها — إذا شاء — موظف صغير ، وأن طبقات الأمة لا تستمتع بالمساواة الكاملة في العلم وفي الحكم . بل ولا في الطعام واللباس والتريض والتوجيه العام .

والتفكير الأوتقراطي ، الذي شرّد جبلة بن الأيهم ، لا يزال يملأ رؤوس الكثيرين من ساداتنا الذين لم يشرودا بعد .

وهذا التفاوت العجيب يظهر حتى في الثياب التي ترتديها ! تلك الثياب التي جعلت من الأمة المصرية الواحدة « كرنفالا » لا تؤذن مهازله بانتهاء ، فكان الأزقة والميادين تأخذ أمداد المارة ، من عدة شحوب ، أو كأنها تعسج بخليط ضلّ منبته الأصيل ، فليس يُدرى أعربيّ هو أم أعجميّ .

ومع ذلك نزع في أنفسنا وخذة الفكر والشعور والاتجاه ! فأين ذلك من وصية النبي محمد صلوات الله عليه وسلامه لصاحبه أبي ذرّ بشأن خادمه « أطمعه مما تطعم وألبسه مما تلبس » .

ومن آثار هذا الاختلال ، أن تلوّث حقيقة الخير في النفوس ، حتى هبطت إلى مستوى لم تهبط إليه من قبل . وأين — رب الناس — معنى الخير في حفلات لاهية صاخبة ، يرصد دخلها لإعانة المنكوبين ؟

وكيف يأبى المترفون إلا الحرص على مُتعمهم الحقيمة ، حتى في الساعات التي يصطرخ فيها الأشقياء ، فيأبى هؤلاء أن يرسلوا إغاثتهم إلا وقد أخذوا في مقابها لذّة وأطفاؤا شهوة ؟ .

أتراهم لو شعروا بالإخاء الصحيح ، والمساواة الكاملة ، التي تربطهم بجمهور الشعب ، أكانوا يستسيغون ارتكاب هذه السفاسافات الوضيعة .

وقد انتشر هذا الفساد — من أعلى إلى أسفل كما أشرنا سابقاً — فإذا ألقيت نظرة عجي على المنشآت الخيرية ، وجدتها لم تقم — غالباً — على برّ

خالص أو سماحة مشكورة ، بل وجدت الكثير منها تأسس على مال «الباغيب» وهو المال الذي دفعه أصحابه طمعاً في أن يرد إليهم أضعافاً ؛ ليست الأضعاف السبعمائة التي ينتظرها المؤمنون ، بل هي الأضعاف المبهمة التي ينتظرها المقامرون . ولست أعرف الخير ينتزع انتزاعاً من مصادر الشر ، كما أعرفه في هذه المستشفيات ، والمبرات التي تستमित في أخذ المال من جيوب لا يبذل أصحابها شيئاً في سبيل الله ، على حين يبذلون الكثير في سبيل الشيطان !

ومن آثار هذا الانحلال أن ظهرت هذه الأورستقراطية العلمية الشائعة في كثير من الأوساط المثقفة .

ففي الوقت الذي لا يزال جمهور الأمة يفكر فيه بعقلية الزنوج الهمل ، تحت وطأة الجهل المتراكم عليه من قرون ، نرى البعض يفكر بعقلية اللاتين ، أو السكسون ، أو الأمريكان ، ويحيط نفسه في البيت ، وفي النادي ، وفي الملهى ، بهذا الجو الغربى البهيج الألوان .

والهدف الفذ لهذه الطائفة ، أو لأغلب أفرادها ، أن يُحوّلوا قوتهم العلمية إلى قوة مالية .

فهم يتكالبون على شراء الممتلكات المختلفة من عزب وعمارات . وبذلك تتآمر شتى العوامل على إبقاء الطبقة الدنيا ، فقيرة من العلم ، فقيرة من المال ، فقيرة من القوة والسلامة والعافية .

ونشأ عن ذلك ، أن معظم درجات التعليم ، لا يطبق الانتظام في سلكها إلا القليلون من أبناء الطبقات العليا ، ونفر قليل من أبناء الطبقة الوسطى ، التي تكافح — دائماً — لحفظ مركزها وصيانة حقوقها في الحياة .

ورءوس هذه الطبقة ، كثيراً ما يتكلمون عن الأمة الجاهلة ، كما تراها عقولهم الكبيرة ، والضعيفة ، كما تحسها نفوسهم القوية ، يتكلمون عنها ، وهم لا يشاركونها حياتها ، ولا يشاطرونها آلامها ، لأن من خصائص طبقتهم الممتازة بالعلم والمال ، ألا تخالط المواطنين الآخرين إلا بحذر وقدر .

قالعلم والخطورة على سواد الشعب متلازمان .
ولا يكاد أحد هؤلاء السادة يحى الجمهور إلا بهزة واهية من ذراعه ،
ثم لا تلبث قوانين الجاذبية ، أن توقف تذبذبها ، ثم تردها إلى وضعها
السابق العتيد .

ومن آثار ذلك أن الجندية يستطيع أن يفلت منها الأغنياء وأوساط الناس ...
أليس دفع (البذل) جائزاً ؟ وما دام يمكننا دفع ضريبة الجيب ^(١) بدل
ضريبة الدم فعلى المساواة العفاء ! .

ومن الغرائب أنهم لما عدلوا هذا القانون ، جعلوا البذل الشخصى يقوم
أحياناً بدل البذل النقدي ! .

أليس هذا ذريعة ليتمكن المترفون من إبقاء أبنائهم معهم ، وليأخذ
الجيش حاجته من أبناء الفلاحين والعمال فقط .

مع أن الأمر الذى لا ريب فيه أن الأمة أحوج إلى إبقاء الفلاح فى حقله ،
والعامل فى مصنعه .

وأشد حاجة إلى كف هؤلاء المترفين عن عبثهم الفارغ ، وقيادتهم —
رغم أنوفهم — إلى ميادين التدريب والتمرين .

ولا نريد أن نمضى فى سرد المظاهر الدالة على صدق ما أثبتناه أول
هذا الكلام ، فهى كثيرة ملموسة ، ولأن نضرب الأمثلة ، لما يحدثة تفاوت
عناصر الأمة الشديد فى اقتسام أهم مقومات الحياة ، فما نظن أحداً يجهل
ذلك ، ولكن نريد أن نعرف ، ما هى السبيل إلى تلافى هذه الأضرار والأوزار
فنسلكها عاجلين مسارعين ؟

ولعلنا نوفق إلى صنع معالم الطريق ، بعد أن يصل بحثنا هذا غايته إن شاء الله

(١) صدر بعد ذلك قانون تعميم التجنيد وهذا حسن ، وهذا لو أسحت ترقية ضباط الصف
إلى ضباط عاملين بالجيش ، وإن ذلك يفتح أبواب الأمل أمام الحمود ، ويشعر الضباط بأن أوفار
اليوم قد يكوون زملاء الغد مما يدعم الأخوة الواجبة بين المواطنين كافة من جنود وضباط .

هل للفضائل أسباب اقتصادية ؟

أَجِدُنِي بِحَاجَةٍ إِلَى أَنْ أُؤَكِّدَ مَرَّةً أُخْرَى قِيَمَةَ الْفِطْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَمِبلَغِ السَّكَّالِ الَّذِي تَسْتَطِيعُ مَعْنَوِيَّاتُهَا أَنْ تَصِلَ إِلَيْهِ ، مَهْمَا أُحِيطَتْ بِالْعَوَامِلِ الْمُضَادَّةِ لَهَا .

فَقَدْ تَحْتَفِظُ الْجَذْوَةُ بِحَرَارَتِهَا وَاسْتَعْمَالُهَا أَمْدًا طَوِيلًا بَيْنَ أَكْوَامِ التُّرَابِ الْبَارِدِ ! !

وَقَدْ تَنْمُو فِي جُوفِ الصَّحَرَاءِ ، أَشْجَارٌ تَخْتِزْنَ فِي أُورَاقِهَا الْمَاءَ وَالْخَضِرَةَ وَالرِّىَّ !

وَإِقْرَارُ هَذِهِ الْحَقَائِقِ لَا يَنْكُرُ حَقَائِقَ أُخْرَى ، نَعْلَنُ أَنَّ الْفَضَائِلَ الْإِنْسَانِيَّةَ وَالْقَوْمِيَّةَ تَفْتَقِرُ فِي نَمُوِّهَا إِلَى مَوَارِدٍ دَافِقَةٍ ، مِنْ أَمْوَاجِ الْحَيَاةِ الْغَنِيَّةِ الْكَرِيمَةِ الْمَرْيُوزَةِ ، وَأَنَّ هَذِهِ الْفَضَائِلَ قَدْ تَذَوَّى وَتَنْتَهَى إِذَا لَمْ تَجِدْ هَذِهِ الْأُمْدَادَ الْمُتَابِعَةَ الَّتِي تَعْمِدُهَا بِالْغِذَاءِ وَالنَّمَاءِ .

وَمِمَّا هُوَ جَدِيرٌ بِالذِّكْرِ : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ كَانَ يَسْتَعِينُ بِاللَّهِ كَثِيرًا مِنَ الدِّيُونِ وَشُرُورِهَا ، وَقَدْ سَمِعَ ذَلِكَ مِنْهُ مَرَارًا ، حَتَّى سُئِلَ فِي ذَلِكَ فَأَجَابَ بِأَنَّ الْمَدِينَةَ قَدْ تُلَجِّثُهُ قَلَّةُ الْوَفَاءِ إِلَى الْكُذْبِ .

فَإِذَا كَانَتْ بَعْضُ أَحْوَالِ الدُّنْيَا تُوْحَى بِالْكَذْبِ ، فَبَعْضُهَا الْآخَرُ يُوْحَى بِالصِّدْقِ — لَامِرَاءَ — وَزَيْدٌ نَحْنُ أَنْ نَنْظُرَ إِلَى بَيْتِنَا لَنَرَى ، أَتُوْحَى بِالْفَضَائِلِ وَتَنْشَىءُ الْفُؤُوسُ عَلَيْهَا ؟

وَلَيْسَ فِيمَا شَرَحْنَاهُ فِي الْفَصْلِ السَّابِقِ غِنَاءٌ عَنْ مُتَابِعَةِ النَّظَرِ فِي هَذَا الْمَعْنَى فَتَحْنُ نَقْصِدُ — هُنَا — بِالْفَضَائِلِ الْمُسْتَوْحَاةِ مِنَ الْبَيْئَةِ ، تِلْكَ الْفَضَائِلُ الْإِيجَابِيَّةُ الْجَلِيلَةُ ، مِنْ إِنْسَانِيَّةٍ عَامَّةٍ ، أَوْ مِنْ قَوْمِيَّةٍ خَاصَّةٍ ! .

تِلْكَ الَّتِي لَا تَقُومُ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ حَضَارَةً عَظِيمَةً إِلَّا فِي ظِلِّهَا .

وَفَقْدَانُ الْعَدَالَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ فِي أَتْحَاءِ هَذَا الْوَادِي جَعَلَ النَّاسَ يَخْرُجُونَ مِنْ .

ظلام الأرحام إلى ظلام الدنيا المليئة بالفاقة والجهالة ، لا عمل لهم إلا ماتوارثوه من بذر الحب وانتظار الثمار من الرب كما يقولون .

فإذا طلعت الشمس عليهم طلعت على قوم ، لم يجعل الفقر لهم من دونها سترًا . بل طلعت على قوم لا يكادون يفقهون قولاً .

وكان لزاماً — في هذه الحياة الراكدة الجامدة — أن يصاب جمهور الشعب بنقص عقلي ، هبط بقواهم الأدبية ، هبوطه بقواهم المادية .

ومن المفيد أن نعلم أن عقل الإنسان جسمه ، يحتاج إلى غذاء دسم منظم ، لكي يستمر نماءه ويتم كماله ، ذلك أنه — كثيراً — ماتجد الرجل في سن الخمسين ، وعقله دون هذه السن بكثير ، فتجد له تفكير الأطفال ، وقصور فهمهم لشئون الحياة العامة .

والسر في ذلك بَيِّنٌ ، ففي حين وَجَدَ هذا الرجلُ حاجاته الضرورية لجسمه من طعام وشراب ، فَقَدَ حاجاته الضرورية لعقله ، من علوم وثقافات وآداب . وقد يكون المعدن العقلي لهذا الرجل نفيساً ، ولكنه كالأرض الطيبة التربة ، لم تجد ماء ولا بذراً ، فلم تجد فيها حياة ولا ازدهاراً .

ومن المحزن أن ننظر إلى كثيرين من أبناء أمتنا ، فتراهم قد أُصِيبُوا بهذا الشلل العقلي ، والعقم الفكري ، والهوان الأليم في إنسانيتهم ، لأنهم حرموا في طفولتهم ، وفي رجولتهم ، هذا الغذاء العقلي ، الذي لا بد منه .

والنقص الأدبي لا يحس به صاحبه إحساسه بالنقص المادي .

بل ربما أحاطت به أحوال تشمره بالكمال والعظمة ، وتهون في باظره القيم المعنوية .

ولو أن كل محروم من وسائل المعرفة والفضيلة ، يتألم لذلك ألم الجوعان لفقدان ما يزحم معدته من وقود ، لاستراح الناس واسترحنا من لوثرات الأغبياء والأدعياء !!

لكن المجتمع العام — بعكس الفرد — شديد التأثير والإحساس بمدى الكمال المعنوي لمن ينتمون إليه ويعيشون فيه .

فمن الناحية الدينية ، يحتاج الإيمان إلى الكمال العقلي . والله عز وجل يقول : « اتَّقُونِي يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ » .

ومن الناحية الدنيوية ، تقل الفوارق كثيراً بين الإنسان والحيوان ، كلما قل عقله ، فمهبوط السلوك الإنساني إلى الحضيض بهبوط التفكير .

ونحن أمة أحوج ما تكون إلى العلم الواسع ، لتنتفع به في دينها ودنياها . وكيف الطريق إلى ذلك إذا لم تتلاش فوارق الطبقات ، ولم يتلاش معها النظام الاجتماعي . ثم يبني المجتمع على أسس من احترام الإنسان ، وتقدير حقوقه ، وتنمية ملكاته وتدعيم فضائله ؟ .. ذلك من الناحية الإنسانية .

أما من الناحية القومية ، فإن فضائل الشعوب الحية ينقصنا — مع الأسف — الكثير منها .

إذ لا بد للشعب الحر من توافر الحمية والأنفة والشجاعة والتضحية ، فأنى ذلك ؟ وللأمية الغالبة على بلادنا أثر بالغ السوء في تبلد الشاعر وضعف الفهم لقضايا الوطن ، وفلة الحماسة العامة لها ، وعدم انمقاد الإجماع على نصرتها ورواج النفاق السياسي بين المحترفين القدامى من الساسة المعجّاز ، الذين تقدموا الصفوف ، لأن الغاصبين أرادوا لهم أن يتقدموها .

والهواة الجدد ممن أغرتهم المنافع ، وظنوا أن في الاشتغال بالسياسة كسباً لأشخاصهم ، وليس واجباً يفرضه عليهم هذا الوطن المغلوب على أمره ! . ولقد كانت الحوادث الأخيرة عبرة ، لمن يرقبون أطوار اليقظة القومية في بلادنا .

وقد دلت على أن هناك يقايا كثيرة من التخدير الذي أُمات الإحساس .

الصحيح في جسم الأمة ، فهي تحاول النهوض ، فيطاوعها بمض أطرافها ؛
ويستعصي البعض الآخر !

وهي تنظر بعينٍ ، فيها بؤادر الغضب ، وفيها فتور النوم ! وهي تفتح فمها
فلا تدرى : ألتقول الكلمة الفاصلة ؟ أم لتتأب ، أم لتخلط بين الأمرين !
وعندما أعلن الطلبة غضبتهم^(١) الأخيرة لمستقبل بلادهم الغائم ، كان على
(القهوات) رجال يطالعون أنباء الطلبة كما يطالعون أنباء الصين ، ورجال
يخرجون من الأزقة القذرة إلى أعمالهم المعتادة وهم يضحكون أو يتضاحكون ،
ورجال آخرون في صميم الريف يمسكون بأذيال البقر وينطلقون خفافاً أو ثقلاً
إلى الحقول ، ليقضوا سحابة النهار ، ثم يعودون مع الليل الهادي ، إلى القرية
الغائمة أبدأ .

ذلك كله ... لأن الوعي الاجتماعي ضعيف عندنا ، والفضائل القومية
— تبعاً لذلك — فآخرة مريضة .

ولسكيا تقوى وتصح ، يجب أن نبحث لها عن الدواء ، ولن نعرف الدواء
إلا إذا عرفنا أن للفضائل العامة والخاصة دعائم اقتصادية ، يجب تعريفها وتقريبها .
ولنضرب المثل ببعض الفضائل المطلوبة ، لنرى مصداق ما نقول :

عزة النفس :

فضيلة يطلبها الدين ، ويجعلها من خصائص المؤمنين ، وينكرها على
الفاسدين ، في أقوالهم وأعمالهم .

(١) في مأساة (كوبري عباس) المشهورة ، حيث قتل بضع عشرات من الطلاب
على عهد الأقلية الحاكمة من رجال الحزب السعدي . وقد انتهى هذا العدوان الوحشي
بسقوط الوزارة بحسب (!) .

قال الله تعالى : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ، إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ » .

ولكن مجتمعات البشر ، لم تقيم على هذا الأساس ، وحاولت أن تجعل للقلّة والكثرة دخلاً في العزة والذلة . وقد يما قال الشاعر :

ولست بالأكثر منهم حصا وإنما العِزَّةُ للكثار
والقرآن الكريم نفسه ، يصف المؤمنين قبل موقعة (بدر) بأنهم كانوا
أذلة إذ يقول : « وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ » .

ويمتنّ عليهم بأنهم بهذا العصر انتقلوا من حال إلى حال ، وأنهم
اشتدوا به مادياً وأدبياً ، معنوياً واقتصادياً :

« وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ، تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ ، وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ » .
ويمكنك أن تنظر إلى أحوال رقيق الأرض من الفلاحين . وإلى أشباههم
من الطبقات البائسة . أتجد لديهم عزة نفسية ؟ وإذا وجدت شيئاً من ذلك ،
أتستطيع القول : بأن ذلك يشبه عزة الموظفين والتجار والملاك وغيرهم ، من
أصحاب الأوضاع الاقتصادية الكريمة ؟ ؟ لا . . .

فحاجة النفس الإنسانية إلى سناد مادي ، لتقوى به وتمتد ، أمرٌ لا بد منه ،
وإلا فسيدركها ذل الاحتياج وهوان الشأن في البيئة الفقيرة الحقيرة !

ولولا الكفاح المتتابع الجاد ، الذي قام — ولم يزل يقوم به العلم والإيمان —
لأَسْتَبَدَّتْ في الأرض سلطان الكثرة في المال والجاه ، ولَأَنْكَرَ على الطبقات
الفقيرة كل شرف وتقدم .

فَلَمَنْعَرَسِ العِزَّةَ في النفوس — إذا شئنا — بالدعائيات الواسعة
والهتافات المدوية .

ولكن لن يبقى بعد ذلك ، إلا أثر المكان الذي ينبب العزة ، والمجتمع الذي يمنح كافة الطبقات نصيبها المفروض لها ، من الإباء والتطلع والاعتزاز . وقد يعقل الفقر الفتى دون همه وقد كان لولا الفقر طَلاعَ أنْجِدَ ومن المؤلم أن الذل اختلط بالدين الآن اختلاطاً سميجاً ، فكثيراً ما كنت أستمع إلى هذه الكلمة (رضيت بما قسم الله لي) من أفواه الفلاحين المنكوبين في أرزاقهم ، ومن أفواه العمال المضيعين في أجورهم . ومن أمثال هؤلاء وأولئك ، ممن حظهم في الحياة ضئيل ، ونصيبهم من الدنيا قليل ! فكنت — أول الأمر — مخدوعاً بما تشير إليه الكلمة من إيمان وتسليم ، حتى تبينت أخيراً أن للكلمة الشائعة دلالة أخرى ، قد تكون أقرب إلى الواقع .

فرجعت أتساءل . . ترى هل هذا رضاء بالقدر في أشد أحواله ، أم هو حرص على الحياة في أحط صورها ؟ ولم يظل تساؤلي كثيراً ، فقد عرفت وجه الحق .

إن المسألة لاتعدو الاستمساك بأهداب الحياة ، ولو كانت في الدرك الأسفل من الشقاء . والاستنامة في مهاد الذل ، ولو كان مليئاً بالأشواك والأقذار . ترى هذا كله ثاوياً في قرارات النفوس المريضة ، تمكن له التعاليم الضالة ، والفكر الخاطئة ، فإذا به يظهر على الألسنة كأنه تسبيح وتحميد ، ولكنه في الحقيقة الركون إلى معيشة العبيد !

وقد عاب القرآن قوماً ، لأنهم يرضون بالحياة على أى صورها فقال : « وَلَتَجِدَنَّهْمُ أَحْرَاصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ . . . يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعْمَرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعْمَرَ » .

إن عدم الفرار من الحياة القدرة — ولو إلى الموت — مهانة نفسية ، لغت في سوادها أكثر أقطار الشرق الإسلامي .

والغريب أن يكون هذا باسم الإيمان بالله ، والتسليم للقدر ، مع أن التجارب علمتنا : أن الجرأة على الموت فضيلة لا تظهر إلا في الشعوب الحية والأمم القوية .

وضريبة الدم التي نسمع عنها ! لا يدفعها إلا أبناء هذه الأم العظيمة . وقد كان العرب الأوائل يحرصون على الموت ، أكثر مما يحرص أعداؤهم على الحياة . . .

أما الحياة السقيمة ، فهم أبعد الناس عن الرضا بها ، أو الهدوء في كنفها . فأين من هذا أقوام يطوون بطونهم على خشاش الأرض ثم لا يرضون بهذا فحسب ، بل يقولون : (اللهم أدِّمْهَا نعمة ، واحفظها من الزوال) . أليس زوال هؤلاء نعمة تستريح بها الحياة ؟ .

قال ابن المقفع على لسان « كليلة ودمنة » :
 إن من الناس من لا مروءة له ؛ وهم الذين يفرحون بالقليل ويرضون بالدون ؛ كالكلب الذي يُصِيبُ عظماً يابساً فيفرح به .
 وأما أهل الفضل والمروءة ، فلا يُقْنِعُهُمُ القليل ، ولا يَرْضَوْنَ به ، دون أن تسمو به نفوسهم إلى ما هم أهل له ، وهو أيضاً لهم أهل ؛ كالأسد الذي يفترس الأرنب ، فإذا رأى البعير تركها وطلب البعير .

ألا ترى أن الكلب يُبْصِصُ بذنبه . حتى تُرْمَى له الكسرة .
 إن الفيل المعترف بفضله وقوته إذا قدم إليه عافه لا يعتلفه حتى يُمسح ويُتملق له .

فمن عاش ذا مالٍ وكان ذا فضلٍ وإفضالٍ على أهله وإخوانه ، فهو — وإن قلَّ عمره — طويلُ العمر .

ومن كان في عيشة ضيقٍ وقلّةٍ وإمساكٍ على نفسه ودويه فالمقبور أحياء منه ، ومن عملٍ ابطنه وقنع ، وترك ما سوى ذلك عُدٌّ من اليهائم .

قال كلبيلة : قد فهمتُ ماقلتَ ، فراجعْ عقلك ، واعلمْ أن لكل إنسان منزلةً وقدرًا .

فإن كان في منزلته التي هو فيها متمسكا كان حقيقاً أن يُقنَع . وليس لنا من المنزلة ما يحطُّ حالنا التي نحن عليها .

قال دمنة : إن المنازلَ متنازعةٌ مشتركةٌ على قدر المروءة .

فالمرء ترفعه مروءته من المنزلة الوضيعة إلى المنزلة الرفيعة ، ومن لامروءة له ، يحطُّ نفسه من المنزلة الرفيعة إلى المنزلة الوضيعة .

وإن الارتفاعَ إلى المنزلة الشريفة شديداً ، والانحطاطَ منها هيناً ، كالبحر الثقيل : رفعه من الأرض إلى العاتق عسير ، ووضعه إلى الأرض هيناً .

فنحن أحقُّ أن نرومَ ما فوقنا من المنازل ، وأن نلتَمِسَ ذلك بمروءتنا .

التعلم :

فضيلة طالما أطنبَ الدين في مدحها ، حتى جعل منزلة العالم بين العباد كمنزلة البدر بين سائر الكواكب ! وحتى جعل فضل العالم ، تشهد به الطيور في الجو ، والحيتان في البحر !

ولكن بمقدار مامدح الدين العلم ، بمقدار ما أقدم الناس عندنا على الجهل . فما حوَّلتهم نصائحه بدوراً ولا شموخاً ، ولا شهد لهم بالفضل طير ولا دابة ، بل قلتُ نسبة المتعلمين ، وغشت نسبة الجهال .

ومنذ عشرين عاماً ، والمصلحون يحاربون هذه الروح المنكرة ، حتى استطاعوا أن يرفعوا نسبة المتعلمين إلى ٢٠٪ ، من بينهم من يحسن كتابة اسمه فقط ، ومن يحسن قراءة الصحف بعد إعلان الحرب على علماء اللغة جميعاً .

وبديهي أن تعميم التعليم بالنصح والإرشاد والترغيب ، أمر لا طائل تحته .
فإن الأمر يحتاج إلى إلزام عام ، تُسَخَّر فيه قوى الدولة ومواردها !
ويجب أن تلين أنظمة الأمة الاقتصادية والاجتماعية ، تبعاً لذلك ،
حتى لا يبقى في البلاد جاهل واحد . وإلا فلا قيمة مع الجهل لدين يبقى لنا ،
أو لدنيا نحيا فيها .

إن احتكار العلم كان — قديماً — إحدى الدعائم التي يقوم عليها
نظام الطبقات .

فكان الكهان والرهبان ، ومن على شاكلتهم يمنعون المعارف القليلة
التي بين أيديهم أن تصل إلى غيرهم ، حتى لا يشاركوا في القداسة والكبرياء
المفروضين لطبقته .

وقد أشرنا آنفاً إلى أن هناك أورستقراطية علمية ، تُتمم زميلتها المادية ،
ويعانى الشعب الأمرين في ظلها .

ولا فكاك من هذه القيود المظلمة إلا بإشاعة العلم ، وتحطيم الحواجز
المجرمة ، التي تحرم الجمهور من أن يعب منه ، حتى يرتوي ويكتفى ، إن كان
من العلم ارتواء أو اكتفاء .

وينبغي أن نجزم بأن العلة الأولى في فساد الدين وتأخر أصحابه ، هي
الجهل الثقيل ، الذى ضيق آفاق الحياة في أعينهم ، وأفسد الذوق الإنسانى
في فطرتهم ، وأوقفهم أمام نصوص الدين وهم لا يفقهون .

ذلك لأن القرآن نفسه يقول :

« وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ » .

فكيف بعد ذلك يوجد مع الجهل دين ؟ وكيف يعم الدين القلوب ، إذا
لم يعم العلم العقول ؟ وكيف يتم هذا أو ذاك ، إلا فى حراسة المدل الاجتماعى
الصحيح ؟

حسن الخلق :

فضيلة إنسانية ، حض عليها الدين ، وجعلها ثمرة لكثير من العبادات التي أمر بها ، واعتبرها أمانة الكمال البشرى ، في أرقى مراتبه ، حتى لم يوصف النبي صلوات الله وسلامه عليه إلا بها « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » في معرض سمدحه وبيان فضله .

والمجتمع الذي يتوفر حسن الخلق في معاملاته ، هو هدف الرسائل العظيمة ، من دينية ودنيوية .

ونحن إذا حللنا سوء الخلق ، وأرجعناه إلى عناصره التي يتكون منها كما يتكون الماء من عنصريه المعروفين ، لوجدناه مزيجاً من جهل وفقر ، أو جهل ومرض ، أو جهل وترف .

وإن خلو المجتمع من هذه العناصر ، يتبعه — غالباً — خلوه من شراسة الأخلاق وضعة السلوك !!

وإن المجتمعات التي يروك شرف معاملاتها ، وجمال آدابها ، وصدق اتجاهاتها ، هي هذه المجتمعات ، التي تأصل فيها العلم ، وسادتها العافية ، وتقاربت فيها العقول ، وتساوت فيها الحقوق ، وأمكن فيها التفاهم والتعارف ، وتجاوبت فيها المواطن .

حتى لتكاد التحية العابرة في الطريق أو في الترام تؤسس حُباً مَكِيناً بين أصحابها .

أما هنا ، فالحرمان ملأ النفوس بالبغضاء ، والتفاوت البالغ بين الثقافات والمشارب والمنافع ، جعل الناس يتنفسون في جَوٍّ من الشراسة والتفاكر . وفي البيت أو في الشارع ، في القرية ، أو في المدينة . يكون من أيسر الأمور ، أن تتحول المناقشات التافهة ، إلى معارك حامية .

ثم تبحث عن حسن الخلق ، فلا تجد إلا قشرة خفيفة ، وراءها جفاء غليظ ! .

ولا عجب ، فهذه النتيجة هي آخر ما يمكن للدين أن يصل إليه بالكلام .
أما إذا أردنا النتائج العملية العظيمة ، فلها طريق أخرى .
وسنجد في هذه الطريق أن حسن الخلق ثمرة دانية القطوف ، في كل مجتمع ذكي غني قوى .

يصل الدين إلى تحقيق أغراضه فيه ، بحسن توزيع العلم ، وحسن توزيع المال .
أما قبل ذلك ، فلا موضع لأمل ، ولا جدوى في عمل .
ذلك لأن الخلق ليس شيئاً يقول له الخطيب المجيد : كن فيكون ! بل هو أثر تفاعل النفس مع البيئة في البيت والشارع والعمل والمدرسة وغير ذلك .
فيجب تكيف هذه الأشياء كلها ، لتعين على تحقيق ما نريد .

شرق جريد :

من الكلمات التي كنت أستمع إليها وأظنها من الحقائق المسلمة ، أن الشرق موطن الروحانيات ، وملهم العالم مُثَلَّه العليا ، وموئل الفضائل الجليلة ، إن نَبَتْ بها دار أو تنكرت لها أقطار !! وأن ربوع الشرق أُنحمت بهذه النظرات الإنسانية العليا .

حتى صاح « أمين الريحاني » صيحة الوجل من كثرتها ، يريد أن يستبدل بها بعض الإنتاج المادي الذي زخر به الغرب فهو يقول : « أنا الشرق عندي فلسفات ! من يبيعني بها دبابات وطائرات » .

هذه الكلمة الفارقة بأن الشرق وطن الفلسفات الروحية المجردة ! وخضم الأفكار المادية المحضة هي — عندي — موضع نظر الآن ، ويجب أن نعرضها على ميزان النقد ، لنعرف حقيقة ما تنطوي عليه ، ولنعرف — كذلك —

قيمة ما لدينا وقيمة ما لدى غيرنا ، فلا نضل ولا نخزي ! !
لقد بحثت عن هذه الروحانية المزعومة في مظاهرها المختلفة ، فلم أجد لها
أثراً يذكر .

أتجدها في حياة الكبراء الشرقيين ؟ لا .

إن باشوات هذا الوادى الخصب ، وأشياخ العرب في جزيرتهم القحلة ،
ومهرجات الهند ، في أرضهم المبهمة ، لا يدرون شيئاً في معاشهم المفعمة بالنعمة
والثراء عن الروحانية وفلسفتها !! .

بل إن مقايح المساوية المفرقة ومساوى الانحباس في بهيمية الحياة الدنيا ،
لا تجد لها مجالاً أوسع ، مما تجده في هذه الطبقات المتكبرة .

أين تجد هذه الروحانية ؟ أين طوائف الفقراء المحرومين ؟ ؟ !!

أحسبك لن تتصور السجن الذى ضم هؤلاء البائسين برجاً عاجياً ،
أو تتخيل ابتعادهم عن الطيبات والباهج ، زهداً مقصوداً ، وتعالياً محموداً .

إنما هى فوضى الأوضاع وفلسفة الحرمان ، وهذه لا تساوى فى « سوق
النقد » شيئاً تشتري به من الغرب دبابات ولا هراوات ، وما تقدم الغرب
إلا يوم مشى فى طريق بعض تربه الموطوء بالأقدام ، هذه الفلسفات البائسة !! .

ولقد مرت الروحانية الشرقية بتجربة قاسية ، يوم خرس لسان كاهنها
الأكبر « غاندى » عن استنكار المذابح الطائفية ، التى التهمت ألوف الأطفال
والنساء والرجال ، غداة استقر الأمر على تقسيم الهند إلى شطرين .

وكان ذلك على غير رغبة المهاتما صاحب فلسفة السلام العام والبعيد عن
أسباب الخصام !

خرست هذه الفلسفة ، بعد أن ترثرت قليلاً ، لتتقن تمثيل دورها ،
فما أجداء هذا الخداع إلا أن كشف نيتها ، وفضح طويتها ، فلا روحانية ،
ولا روحانيين .

إن توازن الأجسام إلى الطعام والشراب والنساء ، أخذت صورتها الحائلة ،
في ألف ليلة وليلة ! وأخذت صورتها الواقعة في قصور الواجدین الفاسدين ،
وتميز الشرق ، بأن بعض كبرائه يوزن بالذهب والماس ، ويبعثرهما من غير حساب !
نعم قد يوصف الشرق بالروحانية ، لأنه مهبط الديانات ، ومطلع أشعتها ،
ومورث صحائفها المطهرة للعالمين .

بيد أن حالة الديانات الآن في الشرق ، أو في الغرب ، لا تسر .

وعاطفة القدين تواجه — في هذه الآونة — أزمت خائفة ، والرحانية التي
تدعو إليها الأديان ، تحتاج إلى بيان ينفى عنها ما لازمها ، من تشويه وتحريف
على مر العصور .

والإسلام — وهو الدين الجامع لما قبله ، المانع لما بعده — واقع تحت
سلطان حفنة من الفراعنة والقوارين ، جعلوا انتفاع الناس منه محدوداً جداً .
فأية روحانية تبقى في الشرق بعد ذلك ؟ لا شيء !

الحقيقة ، أن الإنسان في الشرق ، هو نفسه إنسان الغرب ، وأن الروحية
والمادية هنا أو هناك ، تخضع لعناصر البيئة وأحوال المجتمع ، وهي عناصر
وأحوال يمكن الهيمنة عليها ، والتصرف فيها ، وتكوين معادلات « جبرية »
تنتج المادية في الشرق ، أو الروحانية في الغرب ، إن شئت .. !

لبس تفكيراً مادياً :

يتوهم ذوو الآفاق المغلقة ، أن إدخال العوامل الاقتصادية في الرذائل
والفضائل ، جنوح إلى التفكير الشيوعي القائم على النظرة المادية المحضة
للحياة ! واستهانة بالقوى الروحية السامية ، التي يجب التعويل عليها في عصمة
الإنسان من السقوط في مهاوى الإثم والمصيان .

وهذا التوهم خاطيء .

فلسنا نفرض من قيمة الجانب الروحاني ، في تدعيم معنويات الإنسان ، وحفظ كيان الأمم .

بيدَ أن ذلك لا يعنى إغفال المشاهد الملموس ، من تولد الرذائل الخطيرة في المجتمعات ، المصابة بالمعوز والاحتياج !!

بل إن الاضطراب الاقتصادي ، في أحوال كثيرة جداً قد يكون السبب الأوحد في نشوء الرذيلة وشيوعها .

وقد بين ذلك نبي الإسلام صلوات الله عليه وسلامه في قصة رمزية صغيرة . فمن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قال رجل لأتصدقن بصدقة ! فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق . فأصبحوا يتحدثون : تُصدّق على سارق ، فقال : اللهم لك الحمد على سارق ! لأتصدقن بصدقة . فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية ! فأصبحوا يتحدثون : تُصدّق الليلة على زانية ، فقال : اللهم لك الحمد على زانية ؟ لأتصدقن بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها في يد غنيّ ، فأصبحوا يتحدثون : تُصدّق الليلة على غني . فقال الرجل : اللهم لك الحمد على سارق ، وزانية ، وغنيّ ! فقيل له : أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقة . وأما الزانية ، فلعلها أن تستعف عن زناها . وأما الغني فلعله يمتبر ، فينفق مما أعطاه الله ...

هذه القصة تشير إلى أن الفقر قد يُلجئ إلى السرقة والزنا . وأن علاج هذه الجرائم ، يكون بمحو العلل التي تمخضت عنها .

وليس القول بهذا شيوعية في التفكير ، ولا مادية في الحياة .

وقد ينشأ الاضطراب الخلقى عن الاضطراب الاقتصادي ، ثم تبقى النفس صريمة له أمداً طويلاً ، حتى يتغلغل فيها وتغور جذوره في طبيعتها .

فإذا انزاحت الأسباب الاقتصادية المخرجة ، بقيت النفس على الخان الأثيمة التي اكتسبتها ، فلا تتخلى عنها ، إلا بعد جهاد طويل !!

وهذا إن دل على شيء فعلى ضرورة اليقظة الكاملة للعوامل المستقرة في البيئة ، حتى لاتفقد النفس طهارتها إلى الأبد بسببها ، وتصبح النصائح والإرشادات عديمة الجدوى ، أو قليلة الغناء .

إن الاضطراب الاقتصادي ، يورث الأخلاق اضطراباً شنيعاً . بل يجعل الأجيال المتعاقبة تتوارث أنواعاً شتى ، من أخطر الأمراض النفسية ، والآفات العقلية الوخيمة النتائج ، البعيدة الأخطار .

وكم تظن عمق الفجوة ، بين بيوت العبادة ، ونواحي المجتمع ، إذا كانت هذه توحى إلى الخير بأقوالها ، وهذه توحى إلى الشر بأحوالها ؟

إن العلاقة بين الاثنين ، هي علاقة الحقيقة بالخيال ! !

فبينما القول البليغ يهتف بالناس في المساجد : أَنْ فِرُّوا إِلَى اللَّهِ ! إذا بالناس مثقلون في المجتمع بقيود من الحاجة المُلِحَّة ، تحبسهم في سجون الضرورات المذلة ، والعذاب الأليم ، فلا يستطيعون عنها فراراً . وَوَدُّوا لو يستطيعون ! !

والحديث الذي يلمح فيه نبي الإسلام : إلى أن المأصي قد توقع فيها الضوائق المالية ، حديث يضع أيدينا على طَرَفِ الحقيقة ، التي بدأ الناس يفهمونها الآن كاملة .

الاستعمار الداخلي يهد للاستعمار الخارجي

يقول أمير المؤمنين عمر — رضى الله عنه :

(ألا . لا تضربوا المسلمين فتذلّوهم ، ولا تجمروهم فتفتنوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتفقروهم ، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم) .

ويروى عنه كذلك هذا القول : (والله ما أحدٌ أحق بهذا المال من أحد ، والله لئن عشت لهم ليصِلَنَّ الراعى في صنماء حظّه من هذا المال) .

وهذا الكلام الذى قاله عمر ، إن كان من عند نفسه ، فنعمًا هو ! وحدير به أن يكون ديننا للناس ، إذ لا قيام لدين ، أو خلق ، إلا فى ظله كما أوضحنا . وإن كان من وحى الدين الذى يعتنقه — وهو ما نعتقده — فلا موضع لخلاف فى فهم دلالة ، وتحقيق أغراضه .

فهو يتضمن دستوراً خطيراً من أهم دساتير الحرية الاجتماعية والاقتصادية ، وحصانة قوية من الحصانات التى تتوفر للشعوب ، فتقيها أوزار الظلم الاجتماعى ، وظلماء الاستعمار الداخلى .

ونحن أحوج الناس إلى فهم هذه الحقائق ، جملة وتفصيلاً .

نحن الذين نسينا ذلك دهرًا ، فوقعنا فى مخالب المستعمرين الباطشة .

إن الاستعمار يُبْقِي للناس صُورَ العبادات الميتة ، إذ لا غناء لهم فيها ، ولا خطر عليه منها ، ويساعد على جمل الدين مقطوع الصلة بكرامة الإنسان الفردية والاجتماعية والسياسية . فالدين — فى نظره — يجب أن يعادى هذه الحقوق المقررة بالفطرة ، أو أن يكون عونًا لمن ينتهكونها ! أو على الأقل ، يجب أن يكون محايداً بإزائهم وإزائها .

أما أن يؤيد الدين هذه الحقوق ، وأن يحض على النداء بها ، وأن يجعل

فى مقدمة الشهداء من يموتون فداء لها ، فلا !

وعلى هذا المبدأ المجرم ، قام الاستعمار الداخلى فى الشرق ، فأسلم الشعوب

لقمة سائغة ، وغنيمة باردة ، للغزاة الأوربيين الذين استولوا على كل شيء واستغلوه لمصلحتهم قبل كل شيء .

ثم جاء دور الأحرار في الكفاح . واسترداد ما ضاع ، فمن الغفلة أن ننسى دروس الماضي وعبره : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » .

ولقد لدغنا المظالم في الداخل ، فسممت دماءنا ، وهدت قوانا ، وسببت لنا هزائم مريرة ، فيجب ألا نتمكن لها من العودة أبداً .

« إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ ، أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ، وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدَا » .

الدين والاستعمار :

للدين مع الاستعمار العالمي ، موقف حاسم ، لا تجد فيه إلا الخصومة الظاهرة والاستنكار البالغ .

فقد وضع الدين معالم ثابتة ، للإخاء الإنساني ، الذي يجب أن يسود بين شعوب الأرض ، إذ رفع من شأن أبناء آدم جميعاً ، وصان لهم كرامتهم ، ونوه بأن بداية خلقهم من ذات الله الكريمة ، وروحه العظيمة ، وأن الله عز وجل ، أسجد ملائكته لأبيهم ، ثم خصهم بفنون من المواهب والملكات ، أغلت شأنهم بين سائر الموجودات :

« وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْإِبْرَةِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً » .

ولا شك أن الناس يختلفون فيما أوتوا من خصائص نفسية وعقلية . ولكن لا يسوغ أن يكون هذا الاختلاف باباً إلى التعادي والتناكر ،

بل يجب أن يكون أساساً لتعاون بعيد المدى ، يقف القوى فيه بجانب الضعيف
ويأخذ العالم فيه بيد الجاهل ، ويفيض المكثرفيه على المقل .

أما أن يأكل القوى الضعيف ، ويستعبد العالم على الجاهل ، ويستعبد
الغنى الفقير ؛ أما أن يشعر كل ذى فضل من جاء أو مال أو سلطان ، بأن له
حق البنى فى الأرض ، وجعل أهلها شيما ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح
أبناءهم ، ويستحي نساءهم :

فهذا فساد عريض ، وانكاس بقيمة الإنسان ومنزلته ، وردّها إلى قوانين
الغابات وطبائع الوحوش ! !

وقد انطبع الاستعمار العالمى بهذا الطابع الأسود من قديم العصور .
واحرقت جوانب التاريخ البشرى بدماء الضحايا المسفوكة ، إشباعاً للغرائز
الخسيسة ، والمظالم الفادحة .

ولم تتورّع الحضارة الغربية الأخيرة — برغم تقدمها العلمى الهائل —
عن الانزلاق فى هذا المنحدر الدنى .

فهى تقاىل الشعوب المتطامعة إلى حرىتها ، وتجتهد فى حرمانها ، من
أسباب العلم والقوة والنهوض .

ولا تريد إلا جعل المستعمرات الشاسعة ، التى تضم أكثر من نصف
البشر ، حقول استغلال ، واتخاذ أهلها خدما ، يعملون لغيرهم ، ويكدحون
لسادتهم المتطفلين الدحلاء .

وقد أتيت الحضارة الأوربية من هذه الناحية ، فلم يزل التنافس الاستعمارى
مشار قتال متواصل ، وحروب « تدمر كل شىء بأمر ربها . فأصْبَحُوا
لَا يَرَى إِلَّا مَسَاكِينَهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ » .

وقاية :

غير أن الدين الذي يعرف غوائل المرض ، لا يكتفى بالتحذير منه فقط بل يُحَصِّنُ أبناءه ضده ، ليكونوا بآمن من فتكه وبطشه .

والحقيقة أن الدين الصحيح عدو الاستعمار الأول . لا يجد الاستعمار عدواً أمضى منه سلاحاً في محاربته ، واستئصال شأفته .

حَصَّنَ الدين أبناءه ضد هذا الوباء وجعلهم — لو آمنوا بالله حقاً — أقرب الناس إلى التمتع بحرياتهم المطلقة ، وحقوقهم الكاملة ، وأشد الناس رفضاً للظُّم ، وثوراناً عليه !!

وأول ما يؤسسه الدين لضمان ذلك المسلك ؛ تكوين البيئة الحرة في الأمة تكويناً بين العالم ، واضح الخطوط .

ولإيجاد هذه البيئة ، يجب توفر عناصر ثلاثة هامة :

(١) الكرامة الفردية : وتقوم على حفظ حقوق الإنسان ، وتحريم دمه

وماله وعرضه ؛ والارتفاع بها إلى مرتبة القداسة ، حتى إن النبي اعتبر حرمة المؤمن أقدس من حرمة الكعبة ، التي يتَّجه إليها المسلمون في صلواتهم ، وفسر حرمة ، بأنها حرمة دمه وماله وعرضه .

ثم حفظ للفرد شخصيته المعنوية — بعد المحافظة على شخصيته المادية — فطالبه بعزة النفس ، وأوصاه أن يستمسك بها ، وشرع من العقائد والتعاليم ما يؤكد أنها ، واستنكر أن تكون القلة المادية سبيلاً للنيل من كرامة إنسان أو إذلال جانبه :

وفي ذلك يسوق القرآن قصة أقوام ارتكبوا هذه المحاولة :

« هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا

وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ . يَقُولُونَ
لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ ، لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ، وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ
وَأَرْسُولُهُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ .

وقد استقصى الدين أسباب هذه الكرامة الفردية ، حتى إنه لينصح
المؤمن ألاَّ يُعرِّض نفسه لنوع من الانكسار والفضاضة ، إذا هو أخذ على
نفسه تنفيذ أمر لا يقدر عليه ، ثم ظهر عجزه عنه .

فينصح النبي صلوات الله عليه وسلامه : « لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه
قالوا : وكيف يذل نفسه ؟ قال يتعرض من البلاء لِمَا لَا يُطِيق » ! .

وهذه شدة إحساس بالكرامة الفردية ، وضرورة تدعيمها بالسلوك القويم :
« إِيَّاكَ وَمَا يُعْتَدَرُ مِنْهُ » .

(٢) الكرامة الاجتماعية : وتقوم على المساواة بين الطبقات ، وإقامة
الموازين القسط بينها ، وجعل التكافل المادى والأدبى ، هو الرباط الذى
يجمع شقاتها ، ويركِّز قواها ، فلا تكون النعمة احتكاراً لطائفة ، ويكون
الحرمان نصيب أخرى .

إذ أن هذه التماسية مصدرُ ضعف عام ، ومثار سخط مكتوم ، تجعل أبناء
الوطن الواحد لا يتحمسُون للدفاع عنه ، ما داموا ليسوا سواءً فى الانتفاع بخيره .
ولأن الأشقياء فى بلادهم ، المتبرمين بأوضاعهم ؛ ستركون مؤنة الدفاع
عنه ، لمن يأكل خيره . وقديماً قال شاعر :

لَا أَذُودُ الظَّالِمِينَ عَنْ شَجَرٍ قَدْ بَلَوتُ الْمُرَّ مِنْ ثَمَرِهِ

وهذه الحقيقة ، هى سرُّ الفتور والبرود . الذى يسود الجماهير فى الأمم
المستعمرة أو الشبيهة بالمستعمرة ، فلا بد من محاربة الاستعمار الداخلى ، حتى لا يكون

هناك مجال لأي تدخل خارجي . وحتى تهب الشعوب على قلب رجل واحد بإزاء أي هجوم يوجه إليها من أعدائها الآخرين ١ .

وقد جعل الدين الموازنة بين طبقات الأمة ، وعدم استرقاق واحدة لأخرى ، من حقيقة الإيمان ، وقرنهاً بواجب العبودية لله وحده :
 « يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ » .
 ومعنى الربوبية لغير الله هو ما قدمنا .

فقد كان رجال الدين طبقة تتمم طبقة المترفين ، وتقاسمها بذخها ، تفتت على جمهور الشعب في ذلك .

« إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » .

فوصف القرآن هذه الحال وصفاً صحيحاً مجرداً ، ناعياً على الناس وقوعه منهم وفيهم :

« إِنِ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ » .

(٣) الكرامة السياسية : وتقوم على إيجاد الحكومة المعقولة المعتدلة ،

التي يشمر أفرادها ، بأنهم أجراء الشعب وخدامه ، لا سادته وجلادوه .
 فإن الحاكم المستبد ، الذي تنتهى تصرفاته بإذلال الشعب ، واحتقار رأيه ، وكبت رغائبه ، هو الحاكم الذى يمهد تمهيداً واسع النطاق للاستعمار ، ويفتح أبواب البلاد على مصراعها ، للمدوان الأجنبي .

ومما لا ريب فيه ، أن سياط الحكومة فى الداخل ، توطىء الظهور لقبول السياط من الخارج !

ومتى انحنى القامات مرةً لمن يريد ذلك من الحكام المجرمين ، انحنى

مرة ومرة ، لمن يشتهى ذلك من طغاة المستعمرين .

ومن ثمّ وضع الدين مبدأ القصاص من الحاكم ، حتى لا يجرؤ على ضرب الناس كلما بدا له .

وقد بدأ النبي (صلوات الله عليه وسلامه) فطَبَّقَ المبدأ على نفسه ، حتى تكون منه الأسوة الحسنة .

بينما كان رسول الله يقسم شيئاً إذ أكبّ عليه رجل — زاحمه وضايقه — فطعنه الرسول بِعُرْجُونٍ كان معه ، فتألم الرجل ؛ فقال له الرسول تعال فاستَقِدْ مني — اقتص — فقال : بل عفوت يا رسول الله .

ولما كان ظلم الحاكم واستباحته للرعية خطيراً في نتائجها ، ويعتبر تهديداً لسلامة الدولة ، وإضعافاً لكيانها ، وانتقاصاً من قدرتها على المقاومة الصادقة للمعتدين ، فقد أرشد عمر بن الخطاب جمهور المسلمين على عهده إلى حقوقهم كاملة فقال : « إني لم أبعث عمالي ليضربوا جلودكم ، ولا ليأخذوا أموالكم فمن فُعلَ به ذلك فليرفمه إلى ليقتص منه » .

فقال عمرو بن العاص — معترضاً — : « لو أن رجلاً أدب بعض رعيته أتقصّه منه ؟ ! »

فقال عمر : « إي والذي نفسي بيده ، أتقصّه منه . وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتص من نفسه » .

وقد طبق عمر رضي الله عنه هذه القاعدة في حزم ، يدل على بالغ اهتمامه بها ، عندما أراد لذلك المصري الأبّي الذي ضربه ابن عمرو بن العاص حاكم مصر ، أن يقتص من عمرو نفسه .

وقال كلمته الخالدة التي يزهى بها التاريخ : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » .

وكتب عدى بن أرطاة إلى عمر بن عبد العزيز وهو عامل له :
— أما بعد — فإن أناساً قبلنا لا يؤدُّون ما عليهم من الخراج ، حتى
يمسهم شيء من العذاب ؟ .

فكتب إليه عمر : أما بعد ، فالمعجب كلَّ المعجب من استئذانك إياي
في عذاب البشر ، كَأَنِّي جُنَّةٌ لك من عذاب الله ، وكَأَنِّي رضاي ينجيك من
سخط الله ! — إذا أتاك كتابي هذا ، فمن أعطاك ما قبَّله عَفْوَاً ، وإلَّا فأحلفه
فوالله لأنَّ يلقوا الله بجناياتهم أحبُّ إليَّ من أن ألقاه بمذابهم والسلام . .
وبهذه الوصاة رفض الخليفة الراشد مبدأ الضغط على الجمهور ، وإهانتته
حتى يدفع الضرائب المستحقة عليه .

فهل تعرف ذلك حكومات شرقية كثيرة ؟ . .
وروى أن قوماً من الكلاعيين ، سُرِقَ لهم متاع ، فاتهموا أناساً من الحاكمة
فأتوا بهم النعمان بن بشير رضى الله عنه ، فحبسهم أياماً ، ثم خلى سبيلهم .
فأتوا النعمان وقالوا له : خليت سبيلهم بغير ضرب ولا امتحان ؟ فقال
النعمان ما شئتم ؟ إن شئتم ضربتهم ، فإن خرج متاعكم فذاك ، وإلَّا أخذت
لهم من ظهوركم مثل ما أخذت من ظهورهم .
فقالوا : هذا حكمك ؟ فقال : هذا حكم الله ورسوله . .

وبهذا رفض الصحابي الجليل مبدأ تعذيب المتهمين ، لحملهم على الاعتراف .
فهل تجد من هذه الأمثلة وغيرها شيئاً يُعين الأمراء والولاة على الاستهانة
بمقوق الناس وحرّياتهم ؟ . .

ومع هذا الهدى الواضح ، في تقرير الكرامة السياسية ، فقد نكَبَ
الشرق بحكومات قصمت ظهره من طول ما أهانتته وأذاقتته الهوان ومن
طول ما ادَّعى أصحابها زوراً ، وانتفخوا غروراً ، فضاعوا وأضاعوا ،
وضلوا وأضلوا .

ولأنَّ نَقْلَ هنا ، فضلاً كاملاً لمؤلف « جزيرة العرب تنهم حكامها » .
يتبين منه القارئ حقيقتين عجيبتين في الأحوال التي تسود هذه البلاد
« الإسلامية » ١١١

أثر النزعة الطائفية في سياسة الحكومة :

من رأى النجديَّ عند ما يتولى إمارة مقاطعة في الحجاز ، أو الزيدى
حين يصبح عاملاً في تهامة اليمن ، أو المناطق المأهولة بالشافعية .
من رأى ذلك توهم نفسه أمام أمير من أمراء الفاشست حينما يقدم إلى
إحدى المستعمرات حاكماً عليها ، تداخله العزة والكبرياء ، ويستولى عليه الزهو
والخيلاء ، لأنه يشعر أن القوم الذين وَلِيَ أمرهم ، دونه شرفاً ، وأقل منه رفعة .
ليس من حق واحد منهم أن يصبح أمير مقاطعة ، أو والى منطقة وإنما
لهم الحق في الوظائف الصغيرة ، يُسندُها إليهم العنصر السيد : النجدي
أو الزيدى .

وقد حاولت أن أعثر في المملكة السعودية ، على أمير إقليم أو ناحية
حجازي ، فلم أجده !
وكذلك أجهدت نفسي في اليمن ، بنية العثور على عامل مقاطعة شافعي ،
فلم أظفر به .

وَأُلْفِيْتُ جميع الأمراء والوزراء ، والموظفين الإداريين في المملكة
السعودية ، من النجديين ، أو من صنائعهم الذين يستلحقونهم من
الأقطار الأخرى .

وليس للحجازيين حظٌّ ، في تَسَنُّمِ مناصب الإمارة ، أو الوزارة ، مع
أنهم أوفر ثقافة من النجديين ، وأقدر على الأعمال الإدارية التي تتطلب
العلم والخبرة .

وفي اليمن تنحصر وظائف العمالة والوزارة والإمارة ، في أيدي الزيديين ، ويحرم منها الشافعيون والإسماعيليون ، حرماناً تاماً .

وقد لاحظت نفس الشيء في عُمان ، إذ يحتكر الأباضية جميع الوظائف الإدارية في الحكومة ، دون أن يسمحوا للسنين بالمشاركة في شيء منها . وقد انصلت بالرأي العام النجدي ، والزيدى ، والأباضى ، وتتبعَتْ اتجاه آراء العامة والخاصة منهم ، لِأَنِّى على مدى مبلغ هذه السياسة في نفوسهم ، ومقدار نصيبها من عقائدهم ، نخرجت بنتيجة واحدة :

هى أن النجديين والزيديين والأباضيين ، متفقون في المبدأ والغاية ، نحو الطوائف التى سادوها .

فالنجديون لا يفرقون بين الحجاز وبين مستعمرة معادية فتحوها عنوةً ، ولهم — وحدهم — الحق ، فى أن يستغلوا جميع مرافقها لمصالحتهم الخاصة . وعلى أبناء الحجاز أن يستسلموا لما يفرض عليهم ، وليس لهم أن يطمعوا فى مساواة النجدي .

وكذلك يجب على الإحسانيين الشيعة ، أن يكون موقفهم مثل موقف الحجازيين تجاه الشعب الفاتح النجدي .

وعين هذه السياسة ، يُطبِّقها الزيديون فى اليمن على الشافعيين والإسماعيليين . وتشعر هذه الطوائف الثلاث الغالبة ، شعوراً أكيدا ، أنها مكروهة كُرْهاً عميقاً لدى الطوائف المغلوبة ، التى تتمحِّىنُ الفُرْصَ لطردها من بلادها ، والإفلات من سيطرتها .

لذلك عمدت إلى إقصائها عن تولى المناصب العالية ، وراقبت — بيقظة وصراحة — حركات مفكرتها ونواياهم .

فضربت عليها يَدَ من حديد ، وتناولتها بقسوة وشدة ، وأخذت على التهمة والظنة وبطشت بالبرىء على حساب السىء ، وجردت سيف الإرهاب

على الرقاب ، حتى ذلّ الشعب واستخذى ، وقتله الرعب من بطش الحكومات ، والخوف من غضبها .

وكان من جراء ذلك ، أن برزت سياسة الرهائن الشيعة في اليمن ، واتسع نطاقها اتساعاً ، لم يشهد له التاريخ مثيلاً ، في كل أدواره .

وإذا حاولنا دراسة هذه السياسة في العالم ، للمقارنة بينها وبين ما هو جار في اليمن اليوم ، داخلنا الهول والفرع من فظاعتها ، وبان لنا أن سياسة الرهائن التي اتبعتها الإسكندر المقدوني مع الفرس ، وبختنصر مع اليهود ، والنازي مع شعوب أوروبا ، أقلّ شراً من السياسة التي تطبقها حكومة اليمن على شعبها .

وذلك أن الأمم التي اتخذت سياسة الارتهان للشعوب المغلوبة ، لم تعمل بها ، باعتبارها سياسة ثابتة لا تبدل لها ، بل جعلتها سياسة وليدة ظروف شاذة ، تزول بزوالها

ولم تجعلها عامة بين كافة طبقات الشعب المغلوب ، وإنما قصرتها على الذين تتوهم فيهم القدرة على الانتفاض عليها ، واليل إلى مقاومتها .

أما في اليمن فالأمر خلاف ذلك ، إذ تنفذ سياسة الرهائن الأبدية في سائر الطبقات وضحاياها : رؤساء العشائر ، وأعيان المدن ، وأشراف الأمة .

وتختار الحكومة من كل بيت رئيس قبيلة ، أو شريف طائفة ، أو عين مدينة ، شخصاً تزجّه في السجن مُكبّلاً في السلاسل والأغلال ، للعدة التي تريدها .

ولا تطلقه حتى يحل محله الشخص الذي تختاره ، من نفس الأسرة .
وتكاف الحكومة أَسْرَ المرتهنين ، بدفع نفقات رهائنهم ، وفق ما تريد ، فيدفعونها لفلذات أكبادهم وأشرافهم .

وقد لاحظت أن الحكومة قد وجدت في ذلك مجالا للربح والثراء .
فالنفقات التي تطلبها من كل رهينة ، أرفع من مستوى نفقات الأمراء .

الأحرار ، مع أن الطعام والملبس الذي تقدمه الحكومة لرهائنها نفس ما يقدم للمساجين المعتادين .

ثم رأيت أن من الربح قَرْضٌ ضريبة عامة على الشعب ، نفقات للرهائن ، ففعلت .

وقد راعني عندما دخلت اليمن منظرُ أحد معتقلات الرهائن في صعدة ، إذ شاهدت مئات من الرجال والشبان والأحداث ، يرسفون في الأغلال ، ويحملون جرار الماء ، يملأون بركة كبيرة ، داخلَ المعتقل ، من بئر مجاورة ، والجند تسوقهم في حرارة القيظ .

وكنت إذ ذاك ذاهباً لزيارة عامل لواء « صعدة » ، فسألت مرافقي عن جرائم هؤلاء المئات من البشر ، لاسيما الأحداث ، فلم يزد جوابه على قوله : « رهائن » .

وكنت أثناء مسيرى إلى العامل ، أفكر في أمرهم ، وأستغرب أن يكون الشعب اليمني الطيب — الذي سلكت دياره منفرداً آمناً — مُجْرماً بهذه الصورة الواسعة .

وزاد استغرابي : أن هؤلاء المئات ، لم يظهر على ملامح أحد منهم شيء من سمات الإجرام .

بل تلوح على ملامحهم مخائل النبل والنجابة ، رغم سحابة الذل والانكسار التي تملوها ، فتكسيهم مسحةً من الأسى الصامت .

حتى إذا بلغتُ العاملُ أفضت معه في الحديث عن سياسة الرهائن وتاريخها

في اليمن ، فجاراني مجارة من يتحدث عن شيء بسيط معتاد لا عار فيه .

وقد تحدثت مع بعض الرهائن حديثاً دامعاً يذيب الفؤاد ، وأخبرني أنه

نقل حديثاً من معتقل « حجة » وقال : إن ذلك المعتقل قدم مات فيه —

خلال سنتين — ما يتنوّف على ثمانمائة شخص ، من رهائن قبيلة « الزرانيق » الشافعية ، التي تسكن منطقة « بيت الفقيه » بتهامة .

ولا يقل عدد الرهائن في اليمن — اليوم — عن عشرة آلاف شخص ، بينهم عدد غير قليل من الأحداث ، ترهّنهم الحكومة ، نيابة عن آبائهم . ويدّولى : أن غاية الحكومة من ارتهان الأحداث ، ترمى إلى طبع الأجيال الجديدة من أعيان الأمة ، على الذل وكسر كرامتهم ، وقتل شعورهم بالهزة ، بعد أن قتلها في الكبار .

ولا ريب أن أرواح الفتيان المتوثبة ، وحماسهم المتوقّد ، سينهار ، ويتلاشى إذا اصطدموا بالسجن والإهانة سنتين ، وهم في مثل تلك السن الغضة ، التي لم تتعوّد تحمّل الأهوال ، والثبات لها .

الأمن المزعوم :

يتحدث كثير من الخلق عن الأمن الشامل المنقطع النظير ، الذي تتمتع به جزيرة العرب ، وخاصةً المملكة السعودية ، ويمدّونه مزية عظيمة ، انفردت بها هذه البلاد ، دون بقية بلدان العالم

ولا ريب أن حديث الأمن صحيح لا مزية فيه ، ولا يمكن أن يحد له المرء مثيلاً في أي مملكة من ممالك الدنيا .

غير أن هذا الأمن الذي لم توفّق أمريكا وإنجلترا إلى تحقيقه في بلادها ، وحققته حكومة بدوية في أرض قبليّة ، يزيد من استغراب الإنسان له ، ويحمل العاقل على دراسة أسبابه وتفهم كنهه .

ولكن الذين أطروء وعدّوه من فضائل الحكم الحاضر ، لم يتمرضوا للحديث عنه ، إلا من ناحية مطهره فقط .

أما كيف يجري تحقيق هذا الأمن ، وما الوسائل التي تتبّع في سبيل ذلك ؟ .

فقد طوى الناس كشحا عن ذكرها ، إما لعدم الإلزام بحقيقتها ، أو خوفاً من الحكومة ، أو مجاملة ، أو إشفاقاً على سُمْعَتِها من السقوط .
يكاد يكون التعزير والتعذيب والإرهاب الوسيلة الوحيدة المتبعة للتحقيق في الجرائم ، في المملكة السعودية .

فالقلم والمداد والقرطاس والاستنطاق العادل ، قد اختفى من إدارات الأمن . وحلَّ محلها السَّوْطُ ، وجريد النخل الأخضر ، والأثقال بالأغلال والقيود . فلا يكاد يقع المتهم في قبضة رجال الأمن والتحقيق ، حتى يؤمر بطرحه أرضاً ، ويجلس اثنان على رأسه ، مثلهما على رجليه ، وينهال اثنان عليه ضرباً بالسَّيَّاط ، أو جريد النخل الأخضر ، فيصرخ ويستغيث ، فلا يسمع من الجواب إلا قوله . « اعترف ، اعترف ! » .

فيملو صراخه واستغاثته ، ثم هَذَبَانَهُ وَأَنْبِئُهُ ، حتى يفقد وَعْيَهُ ، وينشئ عليه .

فإن لم يعترف بما يُوجَّه إليه من اتِّهام ، تُرِكَ حتى يُفِيق ، ثم أُعيدَتْ عليه نفس العقوبة .

فإذا استمات دون الاعتراف ، حمل بالحديد وأُلْقِيَ في غيابات السجن ، بضعة أيام ، ثم كُرِّرَ عليه عين العقاب فإذا لم يُجَدِّدْ ذلك ، أُلْجِئَ إلى تقليم أظافره بالسكبتين في السجن ، وكيَّه بالسفايد المحماة في النار

فإذا فشلت كل هذه العقوبات في حمله على الاعتراف ، أُفْرِجَ عنه ، وخرج إلى الناس صورة مُشوَّهة متداعية ، قد مسخها الهول والفرع ، وحطَّمها الإرهاب والمذاب .

وَقَلَّ من المتهمين من تسعفه قواه ويطاوعه جَلَدُهُ إلى بلوغ هذه المرحلة من التحقيق .

بل إن مُعْظَمَهُم يعترف تحت وَطْأة المذاب الأولى ، مُكْرَهًا ، ايرج نفسه من العذاب المستمر ، بل من الموت الزَّوَام الطويل :

هذا هو سلاح المدالة الوحيد ، الذى تُكْتَشَفُ به الجرائم فى البلاد ،
ويحقق به مع المتهمين ، من أبناء الأمة .

وهو سلاح يستطيع أن يستعمله كلُّ قوى متسلِّط ، ويجهله أداة صارمة
لتحقيق الأمن ، بين أية طائفة يسودها ، ولو كانت من ضواري الوحش ،
لأمن بنى آدم .

فتقطع أكف الناس ورووسهم ، ويجلدون على الزنى ، وشرب الخمر ،
استناداً إلى اعترافاتهم بالجرائم ، تحت تأثير عوامل غير عادية تُخْرِجُهُمْ من
أطوارهم الطبيعيَّة ، وتفقدهم وعيهم وتعلمهم .

هذه طريقة التحقيق مع الأفراد .

أما إذا ارتكبت جريمة لا تدل القرائن والظنون على اتهام شخص معين
بها ، فإن الحكومة تلجأ إلى اتهام المحلة أو القرية أو القبيلة ، التى وقعت
فى حدودها تلك الجريمة .

فتقبض على أعيانها ، وتعذبهم وتصادر أموالهم ، وتُنَكِّلُ بهم نكلاً
عظيماً ؛ ويندر — جداً — أن يسفر ذلك عن معرفة الجانى الحقيقى .

وقد وجدت الحكومة فى اتباع مثل هذه الخطة مصدراً من مصادر
الرِّزْق ، وزيادة فى دَخلِها ، فطبَّقَتْها فى كثير من الحالات .

وإذا أجرم رئيس قبيلة أخذت قبيلته بجرمه .

ومن أمثلة ذلك ما جرى عام ١٣٤٣ هجرية ، فى بلاد « بنى مالك » إحدى
قبائل الحجاز العظيمة .

فقد أرسلت الحكومة خمسة من جُباةِها ، لجمع الزكاة من تلك القبيلة
فلووا فى ضيافة الشيخ ابن فاضل رئيسها .

فاستغل الخمسة الرجال هيبة الحكومة ، واعتدوا على رئيس القبيلة

وأهانوه ، فقتلهم شرّاً قتلة ، مدفوعاً إلى ذلك بالتقاليد العربية التي تقول « النار ولا العار » .

فما كان من الحكومة إلا أن جهزت حملةً ، قوامها نحو عشرين ألف مقاتل على قبيلة « بنى مالك » الثائرة — كما تزعم — وأباحت دماءها وأموالها . فقتل منها نحو ثلاثة آلاف رجل وسبيت أموالها ، وخربت ديارها .

وقد مرت سنة ١٣٥٦ هجرية بديار تلك القبيلة ، وتبطّنت وادي « مهور » وهو من أخصب أودية الحجاز ، فشاهدت القرى قد هدمت ، والآبار قد ردمت ، والجداول قد دفنت ، والمزارع قد عطلت ؛ واكتسى الوادي بأدغال موحشة بدلاً من أنسه ، وصار مأوى للقروء والبوم ، بعد قطانه . وعددت زهاء سبعين قرية ، لم يبق منها إلا الأطلال ، فتوهمت أنى إزاء إقليم ، حلّت به كارثة نسيت ، من كوارث الطبيعة عفت آثاره ، ومحت معالمه ، ومضت عليه — بعدها — ألوف السنين ، حتى جاء من يكشفه وينقب عما أبقته الكارثة من رسومه وأطلاله . . . ! ! !

ولا نقول إلا ما قال الله عز وجل .

« سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَإِنْ يَرَوْا كَلَّآ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا . وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ » .

ضرورات :

شرحنا آنفا معالم البيئة الحرة كما رسمها الدين ، أترأى نسي منها عنصراً ، أو أهمل منها مظهراً ؟ كلا .

• غاية ما هنالك : إنا نجد لها مطمورة في بطون الكتب ، لا تظفر بمن يعمل لها .

وأنه وُجِدَ من رجال الدين — أعني الرجال الذين مَثَّلُوا الأديان كلها ،
في كل عصر ومصر — من خرج عن هذه الحدود ، مثل ما خرج — تماماً —
الرجال المدنيون عن مبادئ الحرية والإخاء والمساواة التي نادوا بها ، ثم كفروا
بتطبيقها ، في أكثر بلاد الدنيا ، التي استمعت لها ، وخذعت بقولهم ! .

فالآفة ليست في الدين . ولا في المبادئ العظيمة القريبة من حقيقته .
إنما الآفة في النفاق السيامي ، الذي ضلَّ الإنسانية عن غايتها ، والذي
أدار رحي المطامع ، على أكباد الأمم المسكينة فزقتها !
وهذا يوجب على الجماهير ، أن تستيقظ لتضع حدًّا لهذا الافتيات الحقير
وهذا الاستهتار الكبير .

وفي العدالة الاجتماعية ، والديمقراطية السياسية ، ضمانٌ لتكوين البيئة
الحرّة ، وتنشئة الأفراد على الاستقلال الذاتي ، وتمشّق الحرية الكاملة ،
ورفض العبودية ، إلهًا وحده !

وحاجة الدين إلى هذه المعاني — ليبقى — كحاجة الإنسان إلى الهواء ليحيا ،
وكحاجة السمك إلى الماء ليعيش .

فإذا ضاعت الكرامة الفردية والاجتماعية والسياسية ، لأمة من الأمم ،
ثم قيل: إن الدين باقٍ فيها ، فاعلم أن ما بقي ليس إلا جثثه الهامد، وملاحه الميتة !
وعندما يشيع الغدر بالأمم ، واسترقاق الأحرار ، وأكل أحور الكادحين
من العمال والفلاحين ، فلا موضع بعدئذٍ إلا لسخط الله وبطشه .

ومن هنا جاء في الحديث القدسي عن الله عز وجل : « ثلاثة أنا خصمهم
يوم القيامة — ومن كنت خصمه خصمته — رجل أعطى بي ثم غدر — أعطى
عهداً أو حكماً أو مالا — ورجل باع حرّاً وأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً
فاستوفى حقه من العمل ، ولم يوفه أجره » .

بلى ، فتلك أمورٌ يبرأ منها الدين .

ولا جَرَمَ أنه يقر كل نظام يحول دون وقوعها ، ويبقى الناس غوائلها !
إنه لا يقره فحسب ، بل يدعو إليه ويناصره .

إبه لا شيء ، ينال من مناعة البلاد وينتقص من قدرتها على المقاومة الرائعة ،
كفساد النفوس والأوضاع ، وضياع مظاهر العدالة ، واختلال موازين
الاقتصاد ، وانقسام الشعب إلى طوائف ، أكثرها مُضَيِّعٌ منهوك ، وأقلها
يمرح في نعيم الملوك .. !!

ومثل هذه البلاد تسكاد لانتهاك على أبوابها مطارق الفتح الخارجي
والعدوان الأجنبي حتى تنهار الأبواب ، وتذل الرقاب .
وكأنما يجعل الله ذلك عقاباً لها على سوء تفريطها في أمرها ، وعدم تنظيمها
لشؤونها الداخلية .

وقد ذكر القرآن أن بني إسرائيل سُلِّطَ عليهم أعداؤهم ، واستعمرت
بلادهم لهذا السبب :

« وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ
مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا . فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا
لَنَا أَوْيَ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ . وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا . . . »
وهكذا نرى التعالي الباطل والنظام الأثيم يجر على البلاد ويلات الاحتلال
ويعتبر ذريعة لوقوعها في براثنه .

ثم يذكر القرآن بعدئذ المرة الثانية لسقوط البلاد في يد أعدائها وتعرضها للغزوهم
« فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ، وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ
كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَلِيُتَبَرَّوْا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا . عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ
يَرْحَمَكُمُ وَإِنْ عُدتُمْ عُدتْنَا . »

وهذا التحذير الرادع ، والتخويف الواضح ، ليس قسوة من القدر على

الأم التي تَخْتَلُّ فتَحْتَلُّ ، والتي يسهل الظلم فيها فيسهل الظلم عليها .
فإن هذه الأم أعضاء مريضة ، في جسم العالم الإنساني الحي . ولا بد من
علاجها لتصح حالة العالم كله .

وقد تكفل القدر بهذا : « وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ
لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ . وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ » .
ومما يتصل بالكرامة الاجتماعية للأمة ، أن يتقرر فيها مبدأ تكافؤ
الفرص وإتاحة العلم والعمل والمغانم والمغانم للجميع ، على سواء . . .
وهذا من أوليات العدالة ، التي شرع الله لعباده .

ومما يذكر أن عمر بن الخطاب أقر هذا المبدأ على أولاده ، ورفض
أن يتميز أولاد أمير المؤمنين على سائر المؤمنين .

فقد أرسل أبو موسى الأشعري — لما كان والياً للكوفة — بعض
الأموال الحكومية إلى عمر ، مع ابنين له ، كانا مجتدين في الجيش القافل من
الكوفة إلى المدينة ، وأراد أبو موسى أن ينفع ابني عمر من هذا المال المرسل
إلى أبيهما ، فدلها على شراء بعض المحاصيل الرخيصة في الكوفة ، ليبيعاها
بشمن أغلى في المدينة ، وبأخذنا لنفسيهما الفرق .

ولكن عمر استولى على المال المرسل ، وقاسمهما الربح الزائد ، لأن هذه
الفرصة ما كانت لتتاح لرجال الجيش على سواء ، ولا لابنيه بصفتهم الشخصية .
إنما أتاحت لهما ، لأنهما من بيت الحكم ، والربح من هذا الطريق لا يجوز !!
وهذا التصرف من عمر شدة إحساس منه بضرورة تكافؤ الفرص بين
المسلمين ، وضرورة قطع الطريق ، على الوسائل المريبة في الاستغلال ، وجر
المنافع الشخصية ؛ وتسليط الوساطات القرضية ، لاقتناص الفرص السانحة ،
من أية سبيل ، وبأي ثمن .

أوضاعنا القلقة

مقارنات

لا ندرى ، هل سيظل العمران على وجه الأرض قرناً آخر أم لا ؟
ولا ندرى ما سوف تكون عليه أحوال الشرق الإسلامى ، وأحوال غيره ،
من أم الأرض الأخرى .

ولكننا نكتب وصفاً مقارناً للأحوال العامة ، التى نعيش اليوم فيها ،
حتى يدرك أخلافنا بُعدَ الشُّقَّةِ بين مُثُلِنَا العُلَمَاءِ ، التى ورثناها من ديننا ،
والواقع البشع فى حياتنا المريعة . !

وليدركوا — كذلك — بُعدَ الشُّقَّةِ بين مجتمعتنا الزاخر بالمظالم —
وهو — كما يقال — مجتمع إسلامى — ومجتمعات الغرب الحافلة بآثار العدالة
والاستقامة — وهى — كما يقال — لا إسلام فيها ولا إيمان .

وسيتوارى الدُّعَاءُ إلى الإسلام خَجَلًا ، عند ما يجدون أنه باسم النبى
العظيم « محمد » صلى الله عليه وسلم الذى عاش متواضعاً ، لين الجانب ، قد حكم
جبايرة ، وقامت قياصرة وأكاسرة ، وأنه باسم هذا النبى الكريم ، الذى
عاش فقيراً ، ومات فقيراً ، قد جمعت ثروات ، وخزنت كنوز ، واستمتع
أفراد ، وجاعت شعوب ! ! .

ولن نعدو فى الوصف ذِكْرَ المشاهد القائمة ، والمقالات المدشورة ، وسنمرق
ما الذى عرا الخصاص التى جعلت الإسلام يُسَيِّطِرُ قديماً على القلوب والأقطار
ويمثل فى تاريخ الإنسانية دور التجديد والنشاط والابتكار .

ثم ما الذى أقعده فى هذه العصور ، عن أداء رسالته ، بل جعل بلاده
نفسها فريسة الهوان والإذلال ! .

ولما كان كتابنا هذا خاصاً بالناحية الاقتصادية ، فإليك صوراً من
نقائض الحياة فى بلاد وبلاد . . .

ولنبداً بالدولة المعجوز « إنجلترا » عدو الشيوعية الأول ، ولننظر
روابط الطبقات فيها .

ذكرت مجلة « آخر ساعة » تحت عنوان . « الملكية » .
و « الاشتراكية » ما يلي :

« ثم تعجب — وأنت في « لندن » — عند ما ترى التوافق العجيب
بين الاشتراكية والملكية . . »

إن شعب بريطانيا ، أصبح يقدس الاشتراكية . . . وهو في الوقت
نفسه يقدس الملكية .

والأسرة المالكة في بريطانيا ، موضع حب واحترام ، وإجلال
كل فرد .

وقد استحوذت الأسرة المالكة الحب الذي تتمتع به . . . إذ نزل الملك
« جورج » عن جميع ممتلكاته للدولة ، مقابل مبلغ يتقاضاه كل عام . .
وفتحت أبواب القصور الملكية — ما عدا قصر بكنجهام — لتدخلها
الجماهير وتتمتع بمشاهدتها .

ولقد أهدت الملكة « ماري » أخيراً إلى الدولة سجاداة ، صنعتها بيدها ،
في ثمانى سنوات ، وطلبت الملكة أن تعرض هذه السجاداة ، في مزاد بين دول
العملة الصعبة . . ويضاف الثمن إلى رصيد بريطانيا ، من هذه العملة .

... ويتمتع أفراد الأسرة المالكة بالحقوق نفسها ، التي يتمتع بها كل
مواطن في إنجلترا . وعليهم ما عليه ، من واجبات .

فإنهم يدفعون الضرائب — كغيرهم — على ممتلكاتهم الخاصة . .
وحدث في عدة مرات ، أن طوب بعضهم بضرائب باهظة ، فاضطروا أن

يفتحوا قصورهم الريفية للراغبين في زيارتها ، نظير أجر . . حتى يستطيعوا أن يدفعوا الضرائب .

ويقولون لك في لندن : إنهم لن ينسوا فرحة الأميرة « اليزابيث » بزواج من « جوارب الفايلون » أرسله أحد أفراد الشعب هدية لها في زفافها .
ولقد بلغ من الدلال في الاستمتاع بالحرية هناك ، أن هذا التصرف النبيل من الملكة « ماري » كان موضع نقد لاذع ، من الشيوعيين الذين لم يقنعهم هذا الجهد الكريم المشكور ، وهناك ما نشرته صحيفة « المصري » .

استغلت اليوم جريدة « الديلي ووركر » الشيوعية ، العاطفة النبيلة التي أبدتها الملكة « ماري » والدة جلالة ملك بريطانيا ، أسوأ استغلال ، واتخذت منها مادة لبثّ دعايتها ضد الأسرة المالكة البريطانية .

ويذكر القراء أن الملكة الوالدة ، قد قامت بصنع سجادة جميل ثمين ، قضت في نسجه أعواماً طويلاً ، ثم قدمته هدية إلى الأمة البريطانية ، كي يباع في أمريكا ، وتنفق الدولارات التي ستدفع قيمة له ، فيما يعود بالخير على بريطانيا الفقيرة إلى الدولارات .

وقد تحدثت صحف العالم بأسرها — ومن بينها الصحف المصرية — عن ذلك الشعور الجميل ، الذي دفع الملكة الوالدة إلى التفكير في خير بلدها ، في هذه الظروف الاقتصادية القاسية ، التي تمر بها بريطانيا .

وقد شاعت الجريدة الشيوعية ، أن تسخرَ من هذه العاطفة الكريمة فاقترحت في مقال نشرته اليوم ، أن يُحوّل جناح كامل ، من أجنحة قصر « بكنجهام » إلى مصنع ملكي لصنع السجاجيد ، يعمل فيه الملك والملكة والأميرات ، ونبلاء ونبيلات المملكة المتحدة .

وذلك كي تكسب بريطانيا من بيعها في الولايات المتحدة ، ما هي بحاجة إليه من دولارات . . .

وقالت « الديلي ووركر » : إنه إذا ارتفع الإنتاج إلى عشرة آلاف سجادة في الأسبوع ، فإن أثمانها ستعود على بريطانيا بدولارات ، تبلغ قيمتها أضعاف قيمة الدولارات التي ستلتقاها بريطانيا في العام المقبل ، وفقاً لمشروع مارشال . .

وهذه هي المرة الثانية في خلال هذا الأسبوع ، التي عمدت فيها الجريدة الشيوعية إلى النيل من الأسرة المالكة البريطانية .

فقد نشرت منذ أيام قليلة صورة « كاريكاتورية » تقارن فيها بين مركز الملك والملكة ، ومركز « سبترزخاما » الزعيم الأفريقي ، الذي قررت الحكومة البريطانية نفيه من بلاده ، لأنه تزوج من فتاة بريطانية بيضاء .

العلاقة الاجتماعية بين إنجلترا والحجاز :

والنظام الاشتراكي في « إنجلترا » مثل سام لتعاون السلطات كلها ، على رفاهية الشعب وتنفيذ القانون في نطاق واسع شامل .

وثبت هنا ، ما نشرته مجلة « المصور » تدليلاً على هذا الاتجاه الدقيق ، تحت عنوان :

ما بين الملك ، والرؤساء للوزير ؟ . .

« يذكر القراء — ولا شك — تلك الضجة التي أثارها زواج ابن شقيقة ملك إنجلترا « اللورد هارود » من ابنة ملحق نمسوي ، وحضور الأسرة المالكة حفلة الزفاف . .

ولقد استقبل الملك العروسين أخيراً ، عقب عودتهما من الرحلة الطويلة التي قاما بها . .

وفي الحاضرة الملكية ، قال اللورد الشاب لخاله الملك :
« إن زوجتي تشاطرنى الفرح يامولاي ، إذ نراك معافى وقد استعدت صحتك . . . » .

فَرَبَّتَ الملك على يده قائلاً :
— الحمد لله ، إذ لم يتجشَّم السير « جيمس ليرموث » — الجراح الملكي — عناء قطع ساقى فى هذه المرة . . وعسى أن يعفى من هذا العناء دائماً ! .

وسأل الملك اللورد الشاب عن أحواله ، فقال :
— على مايرام ، يامولاي . . على أنني سأتمخلى عن الأراضى التي أملكها فى « ليدز » . . .

فهتف الملك فى دهشة : « ولماذا ؟ . . إنها من أقدم أملاككم ، ولكم فيها ذكريات عزيزة » .

— هو ذلك يامولاي . . ولكن حكومة جلالتيكم ترى أن توزيع الذكريات على أربعة آلاف فدان ، ترَفُّ يجب أن تتقاضى عنه ضريبة باهظة ! . .

وهز الملك رأسه وهو يقول :
— أو تحدثنى عن هذا ؟ . . إننى لا أجهله . . ولكن ، ولكن ما حيلتى والأمر فى يد مستر « ستافورد كريس » ، وهو مخلص فى تطبيق القانون ؟ ؟

وليس بمستغرب في بلاد هذه شئونها الدستورية ، وأوضاعها الاقتصادية ، أن تدور فيها انتخابات حرة ١٠٠ ٪ فتخفق فيها الشيوعية ١٠٠ ٪ ولا ينجح فيها نائب واحد .

فلنترك انجلترا الكافرة (كذا) إلى الحجاز ، موطن المقدسات الإسلامية ، ولننمسيك قلوبنا بأيدينا ، قبل أن تذوب أسي وحسرة ، أو قبل أن تنقطع حنقاً وغضباً . . فماذا نرى ؟ ؟

وهناك ألوف الألوف من قطمان البشر ، يرِدُون أماكن القمامة ، ليجثوا في مخلفاتها عما يقتاتون به من قشر البطيخ وغيره .

أجساد معروقة ، من طول الجوع ، تعلوها من وحشة الصحراء غبرة ، وتتوارى في مزق من الثياب المهلهلة ، تحترق في موسم الحج ، وتهالك على قطع النقود الصغيرة ، عندما ترى إليها صدقات رحيمة .

وفي زحمة هذه الجماهير الخافية العارية ، تنطلق — كالمسهم المارقة — سيارات الكبراء — وهي من أحدث ما أخرجته مصانع العالم — مُقِلَّةٌ ذويها إلى البساتين المُنْصِرَّة ، والمطاعم الدسمة ، ومفاتيح الجوارى والغانيات .

وقد رُئِيَ أَحَدُ رُكَّاب هذه السيارة قابلاً بجسمه داخلها ، رامياً برجله من نافذتها ، في كبرياء وعظمة ! !

إن الذي اخترع السيارة ، يستحي من الجنوس فيها ، بهذه الهيئة ! ! !

ولو كان هذا الفقر الذي يَرُزَحُ تحته الجمهور ناشئاً عن طبيعة انعاش في تلك القفار اليابسة ، لَمَا كان لَدَيْنَا ما نقوله .

أما والحكومة تتقاضى من الحجاج ضرائب مباشرة ، تبلغ عشرة ملايين من الجنيهات - عدا نفقاتهم الأخرى - أما وهناك المنابع الداخلة من الذهب الأسود « البترول » فالحالة تستحق النقد الصارخ لا النصيح الهامس .

وإليك تقريراً نشرته « المصرى » عن الشئون المالية فى المملكة العربية السعودية . ذكر فيه أن الإيرادات العامة تبلغ ٨٧ مليوناً من الدولارات - هذا غير ما أسلفنا بيانه عن رسوم الحج - وأن المصروفات تبلغ ٣٦ مليوناً من الدولارات - ومع ذلك فالدولة تعاني أزمة تضطرها إلى الاقتراض ! على حين كان المنتظر أن يتجمع فى خزائنها وفرة ضخمة .

المعجز المالى بسبب البذخ :

ويبدو أن هذا المعجز المالى يرجع إلى البذخ والإسراف الشديد ، الذى يتصف به بعض أقارب الملك « عبد العزيز آل سعود » ، وكبار رجال حاشيته وموظفى حكومته .

كما أن هناك مزاعم شتى ، تتعلق بالفساد الذى يضرب أطنابه بين هؤلاء الموظفين الكبار .

ويقال إن هناك ثروات ضخمة من الذهب ، مدفونة فى الرمال ، كما أنه وقعت حوادث تهريب كثيرة ، لأن قيمة الريال السعودى والجنيه الذهبى ، تقل فى الحجاز ، عنها فى الأسواق العالمية الحرة .

مثال ذلك ما روى من أن إحدى الطائرات كانت تحمل موظفاً سعودياً لقضاء إجازته ، ثم اضطرت هذه الطائرة إلى الهبوط فى الأراضى المصرية ، حيث اكتشفت السلطات المصرية أن من بين أمتعة هذا المسافر الكبير

عشرة آلاف من الجنيهات الذهبية ، التي يساوي الجنيه منها أكثر من ١٢ دولاراً .

ويقال أيضاً إن كبار الموظفين السعوديين يُقبِلون على شراء الأراضي الواقعة على ساحل سوريا ، لأنهم يظنون أن تلك المنطقة ستقام فيها مصانع لتكرير «البترول» وستصبح المنفذ الجديد للبترول العربي ، إلى البحر الأبيض المتوسط .

وقد وصف التقرير حياة البذخ والترف الشديد ، الذي يحياه أقارب جلالة الملك «عبد العزيز آل سعود» .

وتحدث عن الطائرات الخاصة والسيارات الفخمة التي يكتنيها هؤلاء الأشخاص ، وقال : إن بعض الزوّار الأجانب ، دهشوا ، عندما رأوا قصوراً خيالية ، قد تمّ بناؤها في المملكة العربية السعودية .

ويقول التقرير : إن أحد أنجال الملك (ولم يذكر اسمه) ، بنى جزءاً من قصره ، بحيث يكون صورة مصغرة طبق الأصل لفندق « والدروف استوريا » في نيويورك .

ويقال إن الأمير نفسه ، زار الولايات المتحدة ذات مرة ، واشترى أثاثاً أمريكياً بمبلغ ٤٠٠ ألف دولار ، من محل تجارى واحد .

مثل وامر لقاعدة مطردة :

ويبدو أن الاستيلاء على المرافق العامة ، واستغلالها في المآزق الخاصة قد سرت عدواه من وسط الجزيرة إلى ما حولها من الإمارات .

نبدلاً من الإفادة من موارد «البترول» في رفع مستوى الشعب ، وسد خلته ، وتدعيم ثروته ، تكبر أملاك بعض الرجا المحظوظين ! ويشتمد عنفوان الاستعمار الداخلى :

وقد مات أخيراً «الشيخ أحمد آل جبر الصباح» أمير الكويت ، فذكرت الصحف : أنه يعتبر صاحب أكبر دخل في العالم .

إذ هو يكسب أربعة ملايين جنيه كل عام ، أو ما يعادل ٢٨٠ ألف جنيه كل شهر ، أو ٧٠ ألف جنيه في الأسبوع أو ستة جنيهات وستة عشر شلناً في كل دقيقة — حسب إحصاء الصحف الإنجليزى الذى يقول : إن هذا الدخل خالص الضريبة ، إلا ما يفرضه هو نفسه عليه ليجبيه إلى خزائنه ؟ .
ومصدر هذه الثروة ، البترول .

فانظر — رعاك الله — كيف تتبرع ملكة إنجلترا بثمان سجادة من كد يديها وعينها لوطنها . فيتحول الملك الخاص ، إلى عام ، إشارة إلى فناء الفرد في الجماعة .

على حين تنعكس الآية في الشرق الإسلامى ، فيتحول الملك العام إلى خاص ، إشارة إلى فناء الجماعات في فرد

ونحن نؤثر أن نكسر القلم قبل المضي في سرِّد المقارنات والتعليقات المثيرة عندنا في مصر .

وَلَنَتَّحِدَنَّ عَنْ أَثَرِ هَذِهِ الْأَوْضَاعِ الْمَقْلُوبَةِ فِي حَقِيقَةِ الْإِسْلَامِ — كدين —
وفي مصائر أتباعه — كلمة — فهذا ما يعنيننا قبل كل شيء .

انتفاع الأمم بالإسلام

سر دخولها فيه وبقائها عليه

لقد استقبلت الإنسانية الإسلام ، منذ أربعة عشر قرناً ، كما يستقبل المدج المجهود مطالع الصبح الباسم ، يرى فيه الهداية والرشد .
أو كما يستقبل الرقيق المغلول المكدود ، بشائر الحرية والعدالة ، فهو يطمئنه فيها ظمأً روحه إلى السيادة والسعادة .

فإذا نركت المقياس الأدبي في تقويم الإسلام — كدين — يحدد العلاقة بين الإنسان وربه على خير وجه ، ويدفع هذه العلاقة في طريق مستقيم . ونظرت إلى الإسلام بالمقياس المادى المجرد — على ضوء انتفاع الناس منه — لكان ذلك كافياً في فهم انتشار الإسلام ، وإقبال الأمم المختلفة على اعتناقه .
« وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا : مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا : خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ » .

لو كان هذا الدين « بضاعة » تصدر من الجزيرة — قديماً لاجديثاً — لأرسل أهل فارس والشام ومصر ، يسمعون إلى جلبها والإفادة منها ، في هدم السلطات التي عبت طويلاً بمصالحهم ، وبنت كياناتها على أنقاض كياناتهم .
إذ كان المفهوم : أن الإسلام ديمقراطية سياسية ، واجتماعية واقتصادية ، تواخي بين الناس ، فيما لهم وما عليهم .

ومن ثم قامت حول الإسلام الأول ، أجيال تتمعصب له تعصب الخبراء الفاهمين ، لانهصب الحمقى الجامدين .

أما الآن فأنت ترى وتلمس مبلغ فساد التطبيق العملي ، بل الفقه العلمى للإسلام . ومبلغ إفادة الأمم الأخرى من الأنظمة التي تسودها ...

ثم نشأ عن ذلك أن الرأسمالية الغربية قامت في بيئة تفهمها وتهضمها وتندفع عنها . وأن الشيوعية لها — كذلك — دولة تتمصب لها وتبشر بها . أما الإسلام الذي يجب أن يكون جبهة جديدة لشرقية ولا غربية ، فإن أحوال أهله خليط ، من ديمقراطية واستبدادية ما ، ومن رجعية وتقدمية ، ومن رأسمالية وإقطاعية .

وهذه الأسماء كلها رموز لأشكال من الحكم ، ليس وراءها إلا الانهيار المعنوي ، والتبلد النفسى .

وعندما يكون بين جوهر الأمة وشكل الحكم فيها منطقة فراغ ، فإن أمورها لا تُؤْزِنُ بخير أبداً .. !!

وإذا كانت الشيوعية — على ما بها من عورات وسوءات — قد استطاعت تكوين قوم يتمصبون لها ، فكيف حالنا إذا اصطدمننا بها من غير أن نكون الجيل الذى يتمصب لنظمنا الخاصة ؟

وأنى تقدر على ذلك ، إذا لم يحس أفراد الشعب جميعاً باطمئنان وارتياح إلى هذه النظم ؟ .

إليك صورتين من صور التمصب للمبدأ ، إحداها من روسيا ، والأخرى من أمريكا .

ولعل المستقبل يُجَنَّبُ الشرق الإسلامى العثار ، فيؤدى واجبه نحو تقاليده وأبنائه .. فنقدم له صورة ثالثة أصدق وأصح .

من وراء الحدود:

أما الصورة الأولى ، فللكاتب الروسى « إيليا اهر نبورج » .

ولقد رشح « اهر نبورج » نفسه لعضوية المجلس السوفييتى الأعلى .

وهو يقول — في مقاله الذي أذاعه راديو «موسكو» — : « إن شعبنا لن يعيش مؤتمراً بأمر الغير » .
وعبثاً يحاول الرئيس « ترومان » أن يخدعنا ، كعبث محاولة السناتور « ماكاهون » أن يعضنا بقواجذه .

إننا في غير حاجة إلى إرشاد الجبناء ، من مُلَّاك العبيد في « كارولينا » ، كما أننا لا نخشى بائعي « الخردوات » في المدن الواقعة على المحيط الأطلسي .
ولو كان هؤلاء يوزعون القنابل ، بدلا من « الدنتلا » ، ونحن مقتنعون بأن الاشتراكية أجدى من الرأسمالية ، وأن الأخوة أسمى من قانون الغابة ، وأن صداقة الشعوب أولى من كراهية الأجناس .

ثم تابع القول : « على أننا لا نقترح تعليمهم وإرشادهم ، بل نترك أمرهم ليحكم عليهم التاريخ .

غير أننا نقول لهم — في بساطة — : إذا كنتم تظنون أنه لا يوجد ما هو أحسن من نظامكم الاقتصادي ، ومن غلاء المعيشة ، ومن كساد الأسواق ، ومن تقلبات الحالة المالية ، ومن الإفلاسات . فاكم أن تحتفظوا بها وأن تسيروا سيرتكم التي ارتضيتموها » .

« بل يمكنكم أن تنظموا الإنتاج وفق طريقةكم ، وتعلموا أطفالكم وفق أهوائكم ، وتكتبوا القصص الإجرامية ، وتصنعوا أفلاماً سخيفة ، بل لكم أن تضعوا أقدامكم على الموائد ، بشرط أن تكون موائدكم التي تملكونها » .

« إننا نعتقد اعتقاداً ثابتاً في عدالة مبادئنا ، وليت لدينا أية نية ، في تدعيم هذه المبادئ بالقنابل . ولقد دافعنا عن السلم منذ الأيام الأولى ، لشدة جمهوريتنا ، وسنظل ندافع عنه دائماً » .

ثم عاد يتحدث عن أمريكا فقال : إن الدولار أصبح معبوداً في أمريكا .
وقال : إنه حينما كان يقيم في أمريكا ، سمع شاباً يغازل آنسة بقوله : « إنك
تبدين لي كليون دولار ، أي « ما أجلك » « ولو أن مثل هذا القول وجه إلى
آنسة سوفيتية لَفَضِيحَتٌ ، ولها الحق كل الحق في غضبها » .

والصورة الثانية تكشف عن وجهة النظر الأمريكية في هذا التفكير
الشيوعي الثائر . وأهل الولايات المتحدة مخلصون لحياتهم ، راضون عن
أسلوبها وليسوا مأجورين للدعاية ضد روسيا .

وقد نشر مستر « ليونارد شايبرو » الصحفي المعروف ، مقالا هاما عن
روسيا ، وهو من علماء القانون ، وقد درس أنظمة الاتحاد السوفيتي
بدقة ، قال :

« إن هناك فرقا كبيراً بين الوعود والعهود التي كانت الشيوعية المتطلعة
إلى امتلاك ناصية الأمر في روسيا تقطعها على نفسها ، وبين الأعمال التي تمت
فيها البلشفية المنتصرة بوعودها السابقة .

فقد وعد الشيوعيون سكان روسيا في سنة ١٩١٧ « بالسلام والخبز
والأرض » وإلغاء عقوبة الإعدام .

ولكن — بدلا من ذلك — استمرت الحرب الأهلية سنتين ، وبدلا
من الخبز ، مازال الجنود الروس يذهلون لمستوى المعيشة في شرق ألمانيا ،
برغم مرور أكثر من ثلاثين عاما ، على تأسيس النظام الشيوعي في روسيا .
وأما الأرض فقد أخذها الفلاحون لكي تنتزع منهم مرة أخرى ، بواسطة
نظام المزارع الجماعية الذي انتهى بخمسة ملايين ، إلى معسكرات السخرة ،
لمعارضتهم له .

وأما عقوبة الإعدام فقد عادت إلى روسيا بعد أشهر قلائل من إلغائها .

ومن رأى هذا الكاتب : أنه لا أمل في عقد أى اتفاق ، أو أى تفاهم مع
ساسة الكرملين .

وتحدث الكاتب عن الوعود التى وعدها الشيوعيون الشعب الروسى
بشأن مصيره السياسى ، وقولهم له : إن دكتاتورية الدولة ستزول من روسيا ،
ويخلفها نظام يكفل حرية الفرد الكاملة .

ولكن حركات التطهير استمرت من عام ١٩٢٨ إلى اليوم .
وأعلن «ستالين» أنه لا بد أن تبقى الدولة ، وأن يشتد ساعدها ، ما كانت
الرأسمالية موجودة في أى مكان في العالم .

ولم يكن من المصادفات أن أعدم « بوخارين » في إحدى حركات
التطهير المتتالية .

فقد كان أعظم مفكرى الحزب الشيوعى الروسى بعد « لينين » ومن أقوى
دعاة اختفاء دكتاتورية الدولة ، لتوفير الحرية للفرد !!

بعض ما عندها ! :

ولعل هذا الاستمرار للمبادئ السائدة ، وعواطف المتعلقين بها ، يدل
على مبلغ ما أصاب حياتينا النفسية والعقلية ، من اضطراب في ظلال الأحوال
الاقتصادية ، التى نعيش فيها .

لقد سمعت رجلاً يشكو من جودة هضمه ، ويتساءل ماذا يفعل ،
ليجيب صيحات معدته التى تملو بين الحين والحين ، وهو لا يجد القوت ؟
وقرأت أخيراً نبأ العثور على جثة محترقة بالاسكندرية . فلما عرف صاحبها
وانتقل المحققون إلى مسكنه ، وجدوه يعيش مع امرأته في غرفة حقيرة ، كل
ما فيها لحاف قديم مهمل قدر ، كان الزوجان يتفطيان به ، ويضعان رأسيهما
على قطعة صغيرة ، من قضبان السكك الحديدية ! .

وذ كرت الزوجة أن رجلها ، كان دائم الشكوى من الفقر . .
فلما وجه إليها المحقق السؤال التقليدى : هل لزوجها أعداء ؟ أجابت
المرأة : نعم ؟ وأشارت إلى بطنها صارخة : المعدة يابك ! عدونا الأول
والأخير ، وهى أكبر عدو ..

هذا القتل فى الحقيقة صريع الفوضى الاقتصادية ، وخواء المجتمع ، من
حقيقة الدين والعدالة والنظام .

وإذا كانت روسيا ستجند المتعصبين لها ، لكي يقاتلوا معها ، وأمريكا
ستحشد المؤمنين بنظامها ، حتى يستमितوا من أجلها .

فهل الذين تقتلهم نظمنا الاقتصادية البائدة ، هم الذين يدافعون عنها
دفاع المتعصب المستقتل ؟

إننا نوجه القول إلى حكام الشرق الإسلامى المسكين :
لقد أفسدتم دينكم وأضعتم دنيانا ، وبقي لكم من الدنيا ما تحرصون
عليه ، وبقي لنا من الدين ما نتمسك به .

وهذه البقايا المتهافئة توشك أن تزول ، فأمامنا الاستعمار الرأسمالى الغربى
يتربص ، والاستعمار الشيوعى الشرقى يتهدد ، والصهيونية العادية الفاجرة تتلهظ .

وما هكذا تقتنص المصالح أو تساس الشعوب :

أنا النذير لكم منى مجاهرة	كى لا الآم على نهى وإنذار
فإن عصيتم مقالى اليوم فانتظروا	أن سوف تلقون خزيًا ظاهر المار
وتصبحون أحاديثًا ملأمة	يلهو المقيم بها والمدلج السارى

سوء استغلال الدين في حل المشاكل العامة

المرصده :

في مصر أمراض متوطنة كثيرة ، تنبعث من الديدان المنتشرة في تربتها ومياهها ، والفبار المنبت في جوها يرمد العيون .

وتم أمراض أخرى فتاكة ، تنشأ من قلة التغذية ، وكثرة الإرهاق ، وسوء توزيع الأعمال والأموال والعلوم المختلفة .

والتقدير المادي لقيم النفوس والأجسام ، يفرض على الحكومة العاقلة الرشيدة ، أن تحارب الأمراض ، بكافة الوسائل التي يملكها البشر .

ذلك فضلا عن التقدير الأدبي لقيم الناس ، وضرورة إنقاذهم من الفوائل التي تأتي على عقولهم وقلوبهم ، فيما تأتي عليه من أجسامهم وقواهم المنتجة .

والدين يحب العافية ، ويعتبرها النبي صلوات الله عليه وسلامه ، أفضل ما أوتي به إنسان بعد الإيمان بالله . ويوصي الناس بطلبها من الله عز وجل بعد كل أذان ، واعتبر من الأدعية الماثورة التي يكررها المؤمن خمس مرات في اليوم « اللهم إني أسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة » .

وبديهى أن التماس العافية لا يكون بالتمنى على الله ، بل باتخاذ الأسباب الممكنة ، الموصلة إلى استئصال المرض ، وإشاعة الصحة العامة ، وبناء المستشفيات لذلك وتزويدها بحاجتها ، وبما هو فوق حاجتها من الأطباء والدواء .

وهذا — بداهة — بعد رفع مستوى المعيشة ، وتنظيم الأوضاع

الاقتصادية ، بحيث يستطيع كل فرد أن يأخذ نصيبه من الألبان واللحوم
والفواكه وغيرها . !

تلك حقيقة يتضافر الدين مع الدنيا على تقريرها ، ويعملان معاً على
تحقيقها .

ولكن الناس فهموا أن الدين إن لم يُرَحَّب بالمرض فهو لا يبالي بدفعه !
وإن اهتم بدفعه ! فبالكلام القوي ، أو بالكلام المريض .
وذاك حسبه من واجب ، يفرضه على الحكومات ، ويوجه إليه
الشعوب .

وعندما كانت أوبئة الحمى تمحصد الرجال والنساء والأطفال في مصر
العليا . وعندما كان الموتى يحملون على الدواب كأنهم أكوام تراب ،
لانهيار الناكب التي تستطيع الحمل ! استعانت الحكومة برجال الوعظ !
في أعمال المكافحة ، لكي تستطيع إسماع القرى المنكوبة رأى الدين في
النظافة والوقاية .

وهذا العمل خير في ظاهره وباطنه ، لو أن انعدام النظافة والوقاية ، هو
السبب الحق ، في انتشار هذه الأوبئة الخبيثة ، أو لو كانت النصائح المجردة ،
هي الوسيلة الحقة لمنع هذا .

ولكن الناس يعلمون علم اليقين ، أن ثمة أسباباً هائلة ، وراء هذه
القشور الظاهرة ، وأن نصائح علماء الدين لم تقف من سير المرض شيئاً ، لأن
المرضى وذويهم ، أحوج إلى المال والعون والغذاء والكساء والدواء ، منهم
إلى الخطب والنصائح والأحاديث والآيات .

إن الجائع لا يحتاج إلى وَحْيٍ من السماء يقال له : كل . والمريض لا يحتاج
إلى وَحْيٍ كذلك يقول له : استشف .

بل الناس — بفطرتهم — تحت سَوْرَةِ الجوع والمرض ، يتطلعون إلى
الغذاء والدواء .

فمن التمسح الباطل بالدين أن نقصر في توفير الأغذية والأدوية .
ثم نرسل — بدل ذلك — حملة من الوعاظ .
لقد « أمت » مهنة الطب في بلاد كثيرة . وأضحى لكل مريض
حق واجب على الدولة أن تكمهده حتى يشفى ، مهما بلغت نفقات دوائه .
والتأمين الصحى على حياة الجمهور لا تستكثر في سبيله الألوف .
وإنها لجريمة أن تتاح فرصة التداوى للأغنياء ، بل لكلاهم ،
في مستشفيات خاصة ، وأن يرى بغيرهم فى الطريق .
وأخشى أن تضطرب الملائق بين العمال وأصحاب العمل ، فتستعين الحكومة
رجال الوعظ لتسكين الخواطر وتهدئة الشوائر ، بدلا من الجنوح إلى الحلول
الصحيحة الواجبة ، فى أمثال هذه المشاكل ، لأن الأمر لا يعدو الاستغلال
الصغير للدين ، مما تضيق به طبقات المنكوبين والمظلومين .
ورأى الدين الصحيح فى هذه المشاكل ، يمكن فهمه من مصادره ،
وهو أقوم السبل لإراحة الواعظين والموعوظين على السواء .

الفقر :

يعتبر الفقر سبباً ونتيجة معاً ، فى سلسلة المشاكل التى نعانى وبلاتها .
والفقر — فى نظر الدين — قد يكون معصية يسأل الفرد عن الوقوع
فيها . وقد يكون نكبة تسأل الدولة عن ضرورة تلافيتها .
وعوام المسلمين يرون أن رقة الحال ضرب من التدين ، وأن الفقر فى الدنيا
أمانة على الغنى فى الآخرة .

وهذا خطأ بعيد ، يعمل الكثيرون على إشاعته .

فالإسلام يعتبر الفقر مصيبة ، ويعمل على تخليص الناس من آثارها ،
جهد المستطاع .

وقد امتنَّ القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم بنعمة النجاة من متاعب
الْمَيْلَةِ والحيرة واليتم .

فقال تعالى : « أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى
وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى » :

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يسلك الفقر في أحلك الأمور سواداً ،
وأشدها على حياة الناس وقماً .

فكان من أدعيته المأثورة « اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر وأعوذ
بك من عذاب القبر لا إله إلا أنت » .

كذلك كان يقرن استدانة العوز والحاجة بسقطات المعاصي : « أعوذ بك
من المأثم والمغرم - أعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » .

وقد بين أن الرجل المؤمن ، هو الذي يملك شأنه ، ويحزم أمره ، ويستثمر
قواه ، ولا يعيش في الدنيا متصملاً مضيعاً .

روى سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن
الله يحب العبد التقي الغني الخفي » .

وكراهة الإسلام للقمود وَالْمَيْلَةِ ، جعلته يرفع منزلة العمل ، ويعد التعب
فيه جهاداً في سبيل الله ، والهجرة في طلبه ، هجرة إلى الله .

ولعل التنقل في جنبات الأرض ابتغاء الغنى والعفاف ، هو بعض ما جاء
به النظم القرآني :

« قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ » .

ولم يكن النبي مسكيناً ، على المعنى الذى يفهمه الناس للمسكنة الآن ، من هوان النفس وإغلال اليد . بل كان الأعراب يرسلون إليه الهدايا لترد إليهم مضاعفة . .

حتى إن أعرابياً غضب لأنه أهدى إلى النبي ناقة واحدة ، فرُدَّتْ إليه ثلاث نياق فقط ! وكان ينتظر من النبي أكثر من ذلك .

ولقد هم النبي صلى الله عليه وسلم ألا يقبل هذه الهدايا التجارية العجيبة . على أن موقف النبي صلى الله عليه وسلم من المال كان مغايراً من وجوه عدة ، لموقف الناس ، مؤمنينهم وكافرينهم منه .

فهو صاحب دعوة نفسية وعقلية ، تعتبر مبادئها رأسماله الضخم ، أولاً وآخراً .

فإذا انتظر الأولاد من آبائهم ميراث الدرهم والدينار فإن محمداً صلى الله عليه وسلم لا يورث أهله شيئاً من ذلك .

فقد ورد عنه : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » . هو يقول ذلك عن نفسه .

على حين يقول لسمد بن أبي وقاص : « لَأَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرَ مِنْ أَنْ تَتْرَكَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ » .

فإذا لم يكن النبي صاحب خزائن مغممة ، فإن ذلك لا يعيبه فى شيء . . . إنما يخذش رجولة الرجل العادى أن تضيق حيله . وأن يقف تحوله ، وأن تكسر ثرثرته عن الحظوظ العائرة ، والأقدار القاهرة .

مع أن عيبه منه وداءه فيه . لأنه يؤثر معيشة العاجزين القاعدين .

ومسئولية الفقر فى هذه الحال تقع على الرجل المقصر .

غير أن هناك رجالاً يأخذون للعيش أسبابه ، ويطرقون للعمل أبوابه ، ويحرق الواحد منهم دمه وأعصابه . . . ثم لا يجدون شيئاً بعد هذا الجهد المضني ، أو يجدون شيئاً يمسك الرمق ، ويسد بعض الحاجات الملحة ، ثم يجف المعين ، وتَسْوَدُ الدنيا في وجوههم ، وتضطرم في نفوسهم ثورة مكتومة على المجتمع والدولة ، ويسوء ظنهم في قيمة العمل والسعى . . .

ومثل هذه الحال تظهر وتكثر عندما تضطرب الأوضاع الاقتصادية ، وتتدخل أمور غير إرادية ، في توزيع الخسائر والأرباح ، فربما أصابت القاعدين بالربح ، وربما أصابت العاملين بالخسارة .

والدولة مسئولة — لا ريب — عن إعادة التوازن ، وتنظيم الأمور وتحقيق العدالة .

ولا يجوز إقحام الدين — عندئذ — في الرضا بالقسمة والنصيب .
لقد سمعت أحد الفقراء يشكو سوء الحال ، وقلة الربح ، برغم جده .
ويقول — معتذراً — : إن الجنيه يقرع الباب أولاً ويسأل : هل أخى هنا ؟ فإن قيل له : نعم ، دخل . وإن قيل : لا ، يَمِّمَ شطر ناحية أخرى ، باحثاً عن مستقره إلى جنب أخيه .

وقد يكون أخوه مدفوناً تحت التراب ، أو محبوساً في جوف خزانة .
وهكذا تعمل الأوضاع المضطربة على أن يزداد الغنى غنى والفقير فقراً .
وهذا كلام ينطوي على صواب كثير ، وأكثر الحكومات في العالم تأخذ به أخذاً واضحاً ، وتضع على أساسه سياستها الاقتصادية .
وأقرب الأمثلة إلى أذهاننا ، مكاسب الحرب والضرائب الاستثنائية ، التي فرضت عليها .

فما لا شك فيه ، أن أثمان البضائع قفزت بها الحرب إلى حدٍّ بعيد .
وبين عشية وضحاها ، أصبح التاجر الذي كان يملك ألفاً ، يملك عشرة
آلاف أو يزيد .

واقترحت هذه الأموال الزائدة طريقها إلى خزائن النفي ، وهو لم يكلف
نفسه ، حتى مشقة فتح الأبواب ، أمام هذه الوفود السعيدة التي حلت به فجأة !
وبينما حالة الحرب تفعل فعلها هذا ، وترفع به طبقة من الناس . إذا بها
تفعل نقيضه مع طبقات أخرى ، فتكلفها أن تقدم دمها ، وتفقد حياتها ،
أو تكلفها أن تعيش عيشة تمسه لا خير فيها ولا غناء .

فكان لزاماً على الحكومات أن تعالج هذه المفارقات البعيدة ، وأن تحسم
نتائجها المربكة .

فوضعت شتى القوانين لمصادرة الأرباح الاستثنائية ، وحاولت أن تخفف
ضغط البؤس الاقتصادي ، عن الطبقات التي نكبت به .

وقد تكون هذه السياسات الموضوعة ، أفلحت في تحقيق الغرض منها ،
لكن يبقى البحث عن الدواء الدائم ، لحالات الحرب والسلم معاً .

تبقى الإجابة عن شكوى هذا الفقير ، الذي يريد أن يعمل ، وأن يربح ،
وأن يدخل ميدان الحياة لينتصر فيه بجده ، أو أن ينهزم فيه بتفريطه ! .

ومن المؤكد أن الجهود التي يبذلها أصحابها ، ثم لا يربحون منها شيئاً ،
لا تذهب عبثاً . بل تمشي في مسارب ملتوية ، ثم تنتهي إلى أقوام قليلي
العمل ، عظيمي النتائج ، أي أن شقاء الملايين تسعد به - بطريق غير مباشر -
حفنة من الرجال ! وهذا ظلم قاضح .

ومن أ كبر الفواحش عند الله أن يبقى ، بله أن يستغل الدين لإبقائه .

يجب أن يدخل الناس ميداناً تتكافأ فيه الفرص ، وتؤدي الأسباب نتائجها ، وتتأكد فيه قواعد العدل الاجتماعي الصحيح .

هل المخرج في الزكاة :

كثير من العلماء ، إذا ذكر عناية الإسلام بالفقراء ، وَحَدَّيْهِ عَلَى الطَّبَقَاتِ الْبَائِسَةِ ، لم يجد ما يستشهد به على ذلك إلا الزكاة .
تلك الصدقة التي فرضها الله في أموال الأغنياء حقاً معلوماً يتسع لحاجات المكروبين ، ويفرج به ضيق المكروبين .

وهذا تفكير محدود ، واستدلال ناقص .
ذلك أن الزكاة لا تَعْدُو أن تكون ضريبة إحسان . ومصارف الزكاة ، التي يَنْبَغُ الشارِعُ تشير إلى هذا .

ومكان الإحسان المالي في بناء أيِّ مجتمع ليس مكان القواعد والأوتاد .
ومن العبث ، أن تربط حياة قسم كبير من الأمة ، بالفضلات التي تاتي إليه من القسم الآخر .

والشخص الذي يستطيع العمل من كَدِّ يده ، وعَرَقِ جبينه ، لا يجوز أن تفرض عليه الاعتماد في حياته كلها أو جُلِّها على الزكاة .
وإلاَّ فقد انقلبت الزكاة تشريع إفساد ، لتشريع إصلاح . . تشريعاً يعين على البطالة ويدفع إليها ، ما دامت الفريضة لا بد من إخراجها ، وما دام المحتاجون لا بد أن يأخذوا منها .

وتلك كلها نتائج لا يقصد إليها الدين ، ولا يعمد لها .
وقد قال الرسول صلوات الله عليه وسلامه : « لا تجوز الصدقة عَلَى غَنَى وَلَا عَلَى ذِي مِرَّةٍ سَوَى » .

فالرجال الأصحاء لابد أن تُهيأ لهم وسائل العمل .
والربح الوافر الذى يكسبونه من أعمالهم ، هو الدعامة الاقتصادية
الأولى فى بناء كل مجتمع صحيح ، بحيث يكون موضع الزكاة معها ثانويًا ،
يظهر مع طوارئ الضعف والمجز والتعطل والقعود .
وهذا موضع الزكاة الواجب ، ومصرفها المقبول .
ثم إن توفير أسباب العمل أمر تلزم به الحكومة ويفرض عليها .
ويباح لها أن تتخذ من الوسائل الاقتصادية ، مآراء كفيلا بتحقيق هذه
الغاية العظيمة .

بل يتحتم عليها أن تتخذ هذه الوسائل ، وأن تتذكر من المشاريع العمرانية
والتحويلات المالية ، ما يقطع دابرَ التعطل ، ويسوق أفراد الشعب — قاطبة —
إلى ميادين العمل والإنتاج .
وليس فى دين الله ، ولا فى تعاليم الحياة ، ما يحول دون هذا . بل على
العكس .

هناك من التوجيهات الدينية الخاصة والعامة ، ما يؤكد هذا المسلك
ويستلزمه .

فإن الإسلام — مثلاً — يفرض التجنيد المالى إلى جانب التجنيد العسكرى
ويحتم تعبئة النفوس والأموال ، لخدمة الحق والفضيلة والإيمان .
وتجنيد النفوس ، وتجنيد الأموال ، ليس عملاً عسكرياً بحتاً .
ومن الخطأ فهم ذلك فى عصر تطوّرت فيه الحروب ، حتى أصبحت علماً
 وإنتاجاً ، يستنفد طاقة الأمم حتى لا يبقى لها قطرة ! .
فتجنيد النفوس والأموال عمل زراعى وصناعى وتجارى .

هو تسخير للقوى المنتجة ، وجعلها تُروى بقوة ، فى الآلة الدائبة التى

ينبغي أن تدور في أوقات الحرب والسلام جميعاً ، للإعداد والاستعداد .
ومثل هذه الحالة لا يبقى معها عاطل ، ولا يعيش فيها متشرد .

والساهمون في حركتها النشيطة ، هم — جميعاً — جنود مجاهدون ،
يعرفون رسالة الحياة جيداً ، ويقومون بأعبائها على خير وجه .

وإلى بعض هذا يشير الحديث الشريف : « إن الله يثيب في السهم الواحد
ثلاثة نفر : الذي صنعه ، والذي ناوله ، والذي رمى به » .

وعلى ضوء هذه الحقائق ، تعرف القصد من قول القرآن الكريم :
« إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ » .
فتستطيع كل حكومة عاقلة معقولة ، أن تسن من القوانين ، وأن تضع
من النظم ما ترى أن فيه الوفاء بحاجة الأمة ، على اختلاف طبقاتها ؛ وفاء
لا يبقى معه عاطل ولا محروم .

فَلْيَفْهَمِ النَّاسُ رُوحَ الدِّينِ — إن شاءوا — وَلْيَعْلَمُوا أَنَّ مِنْ حَقِّ الْقَادِرِ
أَنْ يَعْمَلَ ، وَأَنْ يَجَاهِدَ فِي الْحَيَاةِ مَا دَامَ حَيًّا
لَا أَنْ تَتَسَوَّلَ الْحُكُومَةُ لَهُ الْإِعَانَاتِ ، وَأَنْ تَفْتَحَ لَهُ مَطَاعِمَ الصَّدَقَاتِ ،
وَأَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بِاسْمِ الْهَيَاةِ الدِّينِيَّةِ ، وَوَجُوبِ إِخْرَاجِ الزَّكَاةِ .

نظائر^(١) لكم أن يرجع الحق راجعاً إلى أهله يوماً فتشجعوا^(٢) كما تشجعوا
على حين لا عذري لمتذكركم ولا لكم من حجة الله مخرج

(١) انتظروا .

(٢) تحزنوا .

تقييد الملكية

المال الذى يقع فى أيدينا ، هل هو ملك مطلق لنا ، نتصرف فيه كيف نشاء ؟ أم هو ملك مُقيّد تخضع فيه تصرفاتنا لقوانين المجتمع وتقف ، أو يجب أن تقف عند حدود معينة ؟ .

إن نصوص الدين تجيبُ على هذا التساؤل إجابة صريحة .

وهي إجابة لا تُرضى مطلقاً طوائفَ الاتفاعيين ، ولا الاستغلايين ، لأنها تغلُّ أيديهم عن العبث والفساد والظلم !

المال الذى فى أيدينا هو ملكنا على التجوُّز لا على الحقيقة .

ونحن مستخلفون فيه ، لينظر الله عز وجل ماذا نعمل به . فإما حكمت تصرفاتنا لنا أو علينا .

والى هذا يشير القرآن : « وَآتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِى آتَاكُمْ » .

ويقول : « أَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ » .

وقد فهم بعض الناس أن محاسبة أصحاب الأموال على تصرفاتهم فى مالهم إنما تكون هناك . . - فى الدار الآخرة - حيث يسأل كل مالى عن ماله : « من أين اكتسبه ؟ وفيم أنفقه » كما جاء فى الحديث .

ولكن المفهوم من مبادئ الإسلام ، ومن تصرفات خلفائه الراشدين غير هذا .

فتصرفات السفهاء فى أموالهم وُضع لها الحجرُ على حرياتهم الشخصية . وهذا مبدأ تستطيع الدول أن تتوسع فيه .

فكما تُنقِذُ الفرد من حماقة سلوكه ، تنقِذُ المجتمع من حماقة بعض طبقاته !
ومبدأ « من أين لك هذا ؟ » أخذ به الخليفة الراشد « عمر » رضي الله عنه .
فصادر — على أساسه — بعض الممتلكات التي ارتاب في مصدرها ،
ورأى أن طريقة تملكها باطلة .

والقاعدة العامة في هذا ونحوه ، نأخذها من قول القرآن الكريم :
« لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ
لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ » .

فهدف الديانات والرسالات الأولى : قيام التوازن بين الناس ، بإقامة
العدل الاجتماعي والسياسي فيهم . وتشريع القوانين المادية والأدبية التي
تكفل تحقيق هذه الغاية الكبيرة بينهم .

وبديهى أن الميزان الذي جاء به الأنبياء ، ليس الميزان الحديدي الذي
يمسكه التجار . ولكنه الميزان القانوني الذي يمسك به المصلحون لضبط
الأوضاع والأعمال ، وتوزيع الحقوق والواجبات ، وتنظيم الهيئات والطبقات !
وهو ميزان تتجدد أحكامه بتجدد العصور ، وتتغير قوانينه بتغير
الأمكنة والأزمنة .

ولكن قيام الناس بالقسط ، هو محور الارتكاز الذي لا يتغير أبداً ،
والذي يوضع هذا الميزان له بياناً ورفقاً .

وقد قال بعض علماء الأصول : إن مصالح الناس المرسلة ، لو وقفَ دون
تحقيقها نصٌّ أولٌ هذا النص ، وأمضيت المصالح التي لا بد منها .

وقالوا — كذلك — : إنه يجوز قتل ثلث الناس ، لإصلاح حال الثلثين !

فإذا كان إصلاح حال الجماعة الإنسانية يعتمد من الدين هذه المنزلة .
فهل تقف الحقوق المكتسبة أو المكتسبة لبعض الطوائف دون إصلاح المجتمع
العام ، وتحقيق السعادة لأكبر مجموعة من أبنائه ؟

وهل لا يجوز بعدئذ تقييد مبدأ الملكية الزراعية والصناعية ، لتحطيم
قيود الجهل والريزية والبأساء ، التي ترزح تحتها جماهير الشعوب ؟

إن التعنت في هذا ، جهلٌ بالدين ، وظلم له عظيم . . .
فحساب الناس على أموالهم دنيوى وأخروى معاً ، ورعاية المصلحة الفردية
والاجتماعية والسياسية تدخل في نطاق هذا الحساب ، دخولا لا شك فيه .

وللحكومة — من وجهة النظر الدينية — أن تقترح ما تشاء من الحلول ،
وأن تبتدع ما تشاء من الأنظمة ، لضمان هذه المصلحة ، وهي مطمئنة ، إلى أن
الدين معها لا عليها ، مادامت تتحرى الحق ، وتبتغى العدل .

ومنع المنافع العامة ، من أن تكون ملكاً لشخص واحد ، وجعلها
ملكاً للدولة وحدها ، أمر لا شيء فيه .

إذ ورد في الحديث : « إن المسلمين شركاء في ثلاثة : في الماء والنار والكلا » .

وهذا من قبيل التمثيل للأمور التي كان لا يجوز — قديماً — احتكارها
لفرد ما ، إذ أن حاجة جماهير الناس إليها سواء ، فلا يصح تمكين يد واحدة
من الاستيلاء عليها .

فإذا اتسعت حاجات الناس باتساع الحضارة وتغير الزمن . فعلى الحكومة
أن تضع يدها — باسم الشعب — على مصادر الثروة العامة كلها ، وأن تقصى
المحتكرين — أفراداً كانوا أو شركات — من محاولة استغلالها لأنفسهم ،
وتسخيرها وتسخير الشعب معها لطامعهم .

دلالة المال المعنوية :

تزكية النفس والضمير ، وترقية الخلق والسلوك ، من أهم ماعنى الدين بدرسه وفروسه ، وهو — وحده — مقياس الخير والشر ، وميزان القيم الصحيحة للرجال .

وقد تواضع الناس من قديم على اعتبار هذه الحقيقة فوق الشك والجدل ، من الناحية النظرية .

أما من الناحية العملية ، فوزن الرجال بحبوبهم قد يقدم على وزنهم بقلوبهم . ومقدار مالههم من مال هو الذى يحدد مقدارهم بين الناس .

حتى شك الشاعر من أنه حين يطلب رؤية الشريف يريه الناس الغنى دائماً ، كأن الشرف فضة أو ذهب لا علم ولا أدب :

إذا قلت يوماً لمن قد ترى أرونى السرى أروك الغنى

ومثل هذه الحال جديرة بعلاج الدين ، حتى لا تنطمس الحقائق ، ويستحق رأى الناس فى الفضائل ، ويضلون طريق اكتسابها .

وقد بدأ القرآن الكريم فننى أن يكون المال — وإن كثر — مظهراً لرضوان الله عن شخص ما ، كما نفى أن يكون فى الإقتار دليل على تجرد الإنسان من الخير والفضل ، فقال :

« وَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي

أَكْرَمَنِي ، وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ...

كَلَّا ، « أَيْحَسِبُونَ أَنَّ مَا بُدِّعُوا بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ؟ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ » .

بل إن القرآن ذهب إلى أبعد من هذا ، في نفى كل دلالة معنوية عن المال .
فبين أنه بعض متاع الحياة الدنيا ، الذي ينتهى معها إلى فناء وعدم ، على حين
يمحله الحق والخير ، ويبقى المستمسكون بها أحياء ، بعد فناء الدنيا وما فيها .
وأنه لولا تخوف الفتنة على ضعاف النفوس ، لقصر المال والجاء على
الأراذل والأشرار .

« وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ
لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ، وَلِالْبُيُوتِ الَّذِينَ
عَلَيْهَا يَتَّكِبُونَ زُخْرَفًا ، وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ
عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ » .

ومن الطريف : أن النبي صلى الله عليه وسلم حكى : « أن رجلا دخل
الجنة فرأى عبده فوق درجته ! فقال : يارب هذا عبدى فوق درجتي قال :
نعم جزيته بعمله ، وجزيتك بعملك ! » .

وهذا بيان جميل لرأى الدين الواضح ، فى أن الرجال بأعمالهم لا بأموالهم .
وقد جاءت آيات شتى ، تنفى كل دلالة معنوية للمال ، وتجاهه الطبقات
الغنية بالحقيقة التى يكثُر نسيانها وينتشر الجهل بها أو تجاهلها .

حقيقة إن قيمة الرجل بما يعمل لا بما يملك .

ومع ذلك ، فموازين الحياة المختلفة مازالت — ولا تزال — تقوم على عكس ذلك .

وشيوع البغى الاجتماعى والسياسى — تبعاً لاختلال الأوضاع
الاقتصادية — يؤكد رأى القرآن فى المال عند ما يفيض فيفرق ويهلك :
« إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ . « وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ
لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ » .

ويؤكد كذلك ضرورة التحكُّم فيه ، حتى لا يكون مَثَارَ بَغْيٍ ولا طغْيَانٍ .
فطالما أُصيبَت الإنسانية في مقاتلها ، من قلة القوانين التي تضبط توزيع
المال وتقيّد استغلاله وإنفاقه .

وطالما كان وجود المال في الأيدي العابثة الفاجرة ، مَثَارَ إغواءٍ بالعبث
والفجور ، يكاد يخلع الإيمان من القلوب ، وبطرد الطمأنينة عن المجتمعات ،
لولا صيحات التحذير التي تعيد الحق في نصابه ، وترد إلى الفضائل وَالْمَثُلِ
العليا قيمتها الثابتة ، وتهون من شأن المال وأصحابه .

وذلك في مثل قول القرآن الكريم :

« فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ » . . .

وأصحاب الأموال إنما يأخذون مكانتهم في الحياة ووجاهتهم بين
الناس لسببين :

الأول : أن المال يعطى صاحبه قوة بالغة يحقق بها مآربه ، ويبلغ بها
أغراضه ، ويستطيع — في ظلها — الاستغناء عن الكثيرين من الناس ،
والكثير من الأعمال المخرجة والمضنية .

والناس يُدَنِّهِمُ الاحتياج ويبتذلهم ، ويقصيهم الاكتفاء ويمكن لهم .
ومن ثمَّ أدخلنا العوامل الاقتصادية في تكوين الفضائل والردائل ،
ولم نغفل خطرهما في تكوين الشخصية الإنسانية .

الثاني : أن الدين يَعِدُ المؤمنين بحسنَي الحياتين جميعاً .

فهم إن آمنوا وأصلحوا ، صلحت معاشهم في الدنيا ، وصلاح مستقبلهم
في الآخرة .

« مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْشَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّه حَيَاةً
طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

فالسعادة في الدنيا بعض الأجر المعجل للإنسان ، على استقامته فيها .
وقد قال الله عز وجل — في أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام — :
« وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ
فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ » .

ولذلك وهم الأكثرون ، أن الغنى منحة إلهية ، تدل على الرضاء
العالي . وأن السعادة المرجوة ، لا تقوم إلا على رُكامٍ كثيف من المال .
وقد تضافر هذان السببان على إعطاء الطبقات الفنية ، مهابة في القلوب ،
وسعة في الجاه ، مما جعل جمهور الشعب يتلقى سطوتها بالقبول والانحناء ،
تارة باسم الدنيا ، التي يملكها صاحب المال ؛ وتارة باسم الدين ، الذي
يجعل الدنيا نصيباً مفروضاً للأغنياء ، أخذوه باستعدادهم واستحقاقهم . . .
ولكن الدين — كما علمت — لا يرى في المال أية دلالة معنوية .
وطيب الحياة الذي وعد الله به المتدينين ، لا يعني كثرة المال ، وبسطة
الرزق ، واتساع الجاه .

فهذه أمور قد يصيبها المؤمن ، وقد يصيبها الكافر ، قد ينالها البعيد
عن الله والقريب منه ، إذ قال الله تعالى :

« كَلَّا نُمِدُّ هَؤُلَاءَ وَهَؤُلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ
رَبِّكَ مَحْظُورًا » .

وقد ينكب المؤمن في هذه الأمور ، لعوامل طارئة ، فلا تنقص قيمته .
ولا تخدش كرامته

أما طيب الحياة المفروض للمؤمن ، فمعناه أن يعيش كبير القلب ، رفيع الرأس ، يُقبل على الدنيا ، ليأخذ منها زاده المادى ، ويقبل على الدين ، ليأخذ منه زاده الروحى . يحرص على إيمانه بربه أبداً ، ويحرص — كذلك — على نصيبه الحق الكريم من دنيا الناس .

فإن فقد فداء إيمانه بربه وإنسانيته ومُثْلِهِ العليا ، فإلى حيث أُلْقَتْ ، وإن وجد عَوْناً ومَدداً لحياة نقية ، بعيدة عن الهوان والطفيان ، فيها ونعمت ! والمذاهب السياسية والاقتصادية ، التى تغمر العالم فى الفترة الأخيرة من تاريخه ، تنظر إلى الدنيا هذه النظرة نفسها ، والرجال الذين ينادون بها يريدون أن يعيشوا فى ظلها سعداء ، أو يموتوا دونها شهداء .

فالشيعية — مثلاً — فى روسيا وعدتُ جمهور الشعب بحياة لا شقاء فيها ولا جوع ولا بأساء .

فإذا تحمّل جمهور الشعب الشقاء والجوع والبؤس فى سبيل الذود عنها ، حين وقعت الحرب بين روسيا وألمانيا . فليس ذلك طبيعة النظام الذى ارتضوه لأنفسهم ، ولكنها طبيعة الحرب ، التى فرضت عليهم .

وما يقال عن الشيوعية ، يقال عن النازية ، ويقال عن الديمقراطية . فكل دين أو نظام يَعمِدُ أصحابه الخير الكثير ، ولكنه لا يكذب إذا كَلَّفَ أصحابه أن يقدموا أنفسهم وأموالهم وكل خير لديهم فى سبيله ! غاية ما هنالك أن الأنظمة المدنية لا تعد أشياءها إلا بأجزية مادية قريبة .

أما الدين فيَعمِدُ أتباعه بالآخرة إن هم — فى سبيله — فقدوا الدنيا .

هل يفهم أحد من ذلك ، أن الدين يكره الدنيا ويحتقر المال ؟ ؟ . إذا كان الدين يُتَمِّمُ بذلك ، لأنه يأمر الناس أحياناً أن يَضَحُّوا بالدنيا ،

وأن يزهدوا في المال . فإن الأنظمة الدنية والمبادئ الإلحادية ، ينبغي أن تنهم كذلك بالتهمة نفسها ، لأنها كلفت أصحابها أن يضحوا بالرجال والأموال ، ولكن أحداً لم يتهمها بذلك .

لأن سوء الفهم للدين وحده ، موفور ، إذ تؤيده الشهوات ، وتدعمه الأهواء ! .

أما سوء الظن بالمبادئ والأنظمة الأخرى فقليل أو معدوم .

ليست للمال دلالة معنوية مجردة ، على خير أو شر ، وإن كان من الممكن أن يكون خيراً ، ومن الممكن أن يكون شراً ، على حسب الطرق التي يؤخذ منها وينفق فيها .

غير أننا إذا أردنا بناء عالم جديد ، تبرز فيه الدنيا بالدين ، لخير الإنسانية ومستقبلها ، فلنضع نصب أعيننا أولاً ، ضرورة تقارب الملكيات وتكافؤ الفرص ، وتساوى الأفراد في الحصول على المقومات الأولى للإنسان ، من غذاء ، ولباس ، وعلم ، وخلق .

ففي هذا الجو — وحده — يكون التسامى بالمواهب العظيمة فقط ، وتقل أو تنعدم كل دلالة باطلة للمال ، على رفعة أو جلاء .

ويجب ثانياً أن يوضع من الأنظمة ما يجرد الأغنياء من مظاهر الذكاء ، وما يرفع الأذكياء عن حياة الخمول والتعطل ، وذلك يتطلب تقويم كفاية الفرد تقويماً مادياً ؛ فمن ارتفعت منزلته الأدبية ارتفعت منزلته المادية .

وقد كان أبو بكر يوزع المال على الناس سواسية ، فلما جاء عمر ، رفض هذا التقسيم وأعطى الناس حسب منازلهم .

ذكر الدكتور محمد يوسف موسى في كتابه « فقه الصحابة والتابعين » :

كان الصديق أبو بكر يُسوَّى بين الناس في أعطيتهم فلا يفضل أحداً على أحد .

قال يزيد بن أبي حبيب : إن أبا بكر لما قدم عليه المال جعل الناس فيه سواء وقال : « وددت أن أخلص مما أنا فيه بالكفاف ، ويخلص لي جهادي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وحدث الليث بن سعد أن أبا بكر كُلم في أن يفضل بين الناس في القسم فقال : « فضائلهم عند الله . فأما هذا المعاش فالتسوية فيه خير » . !

فلما تولى عمر الخلافة واتسعت الفتوح وتدفقت الغنائم رأى عمر في توزيع العطاء بين الناس غير ما رأى سلفه .

رأى أن لا يسوى بين من قاتل رسول الله وبين من قاتل معه !
ثم جعل الناس مراتب وطبقات في الأخذ من هذا المال ، حسب درجة كل منهم في الإسلام . . .

ومن كلامه في تبرير هذا التفاوت : « ما أنا في هذا المال إلا كأحدكم ، ولكننا على منازلنا من كتاب الله عز وجل ، وفَسَمْنَا من رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . !

فالرجل وتِلَادُهُ في الإسلام . . . !

والرجل وغَنَاؤُهُ في الإسلام . . . !

والرجل وحاجته في الإسلام . . . !

وعندنا أن مَنَحَظ عمر في تقسيم العطاء أولى بالتطبيق .

فإن درجات الناس في الآخرة حسب إيمانهم ، لا تهدي الفوارق التي تقوم بينهم في الدنيا حسب كفايتهم وجهادهم .

وإن كان أبو بكر يرى الدنيا أنزل قدرا من أن تراعى في تقدير .
وحجة أبي بكر في صنيعة : أن حساب الناس على أعمالهم وجهادهم
إلى الله وحده ، في الدار الآخرة .
أما الدنيا ، فالأمر أمر مَعْدٍ ، يجب أن تملأ ، وأجساد ، يجب أن
تكسى ، يستوى في ذلك الناشط والكسول ، والمتقدم والمتأخر .
لكن عمر أبي إلا تحقيق العدالة ، وتنظيم الأوضاع ، وتكريم المتقدم ،
وتأديب المتأخر في الدنيا ، وحساب الناس — بعد ذلك — إلى الله .

ص الناس في المال :

لا يجوز أن يبقى رجل من غير دَخَلٍ — قليل أو كثير — يكفل
له المستوى الواجب لمعيشته .
وعلى المجتمع الديني ، أن ينظم أموره تنظيما ، يؤدي إلى هذه النتيجة
المحتومة ، وإلا كان مجتهدا لا دين له .
وفي ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « أئتما أهل عرصة أصبح
فيهم امرؤ جائعا فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى » :
وقد أفتى ابن حزم وغيره من العلماء ، بأنه إذا مات رجل جوعا في بلد
اعتبر أهله قتلة ، وأخذت منهم دية القتل .
وقد اعتبر القرآن أنه من التكذيب بالدين ، أن تدعَّ اليتيم ، وألا تحضَّ
على طعام المسكين .

فكيف يكون رأى القرآن في بلاد لا تهمل الحضر على طعام المسكين
فقط ، بل تصنع الفقر والمسكنة ، وتخرج إلى المجتمع الإنساني ، ألوف
الفقراء والمساكين .

فكان أنظمتها الاقتصادية آلات جبارة ، تصوغ البؤس في قوالب من
أبناء آدم ، ثم ترمي بهم على أفاريز الطرق ، وفي خرائب الأبنية أو بين جدران
السجون والملاجئ والمستشفيات ؟

هل نسمى هذا إلا أنه كفر بالدين ، وإنكار لنصوصه وقواعده ومبادئه
إي وربى ، وإن أصحاب هذه النظم هم أصحاب الميسرة^(١) في الدار الآخرة :

« وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهٗ ،
وَلَمْ أُدْرِ مَا حِسَابِيَهٗ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ . مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهٗ . هَلَكَ
عَنِّي سُلْطَانِيَهٗ خُدُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ . . . إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ
بِاللّٰهِ الْعَظِيمِ وَلَا يَخُضُّ عَلَىٰ طَمَإِ الْمِسْكِينِ » .

والمال الذى يكفى لإذهاب العيلة ، واستئصال الحرمان ، وإشاعة فضل الله
على عباده ، يجب إخراجه — مهما عظم — من ثروات الأغنياء ، ولو تجاوز
تجاوزاً بعيداً مقادير الزكاة المفروضة .

فمقادير الزكاة ليست إلا الحد الأدنى لما يجب إنفاقه .
وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن فى المال حقاً غير الزكاة » .
ولنا كلام يأتى بعد فى أنصبة الزكاة التى فرضها الشارع .
غير أننا نلفت النظر ، إلى أن الزكاة فى صدر الإسلام ، لم تكن المصدر
الوحيد ، الذى رُصدَ لمحاربة الفقر واستئصال شأفته .

فقد كانت أموال الفيء والغنائم والخراج ، مصادر أخرى غزيرة النفع ،
تعمل عملها الواسع فى تفريج الضوائق ، وسد حاجات اليتامى والمساكين والمعوزين .
فإذا جفت بعض المنابع ، كان على المنابع الباقية أن تحمل العبء كاملاً ، وعلى

(١) أحزاب الميسرة الآن هم العروفون بالمبول الاشتراكية .

الدولة أن تستنيط من موارد المال ، ما توازن به شئون المجتمع ، وتقيم به مصالح الناس . والدِّين لها في كل ذلك ظهير .

وإذا كانت الغاية التي شرعت من أجلها الزكاة ، هي تحرير الفقراء من قيود الفاقة ، وإطلاق إنسانيتهم من إسارها الحالك ، فلنُحَقِّقْ هذه الغاية كاملة ، ولنُحْمِلْ ما تفرضه علينا من تكاليف ، قليلة أو كثيرة !

لكن إبقاء كثير من الناس صرعى للفقر والمسكنة كان — والحق يقال — هدف أكثر الحكومات المتتابة ، في العصور السابقة واللاحقة .

إذ أن تجويع الجماهير ، بعض الدعائم التي تقوم عليها سياسة الظلم والظلام . ومن هنا انتشر الفقر انتشاراً ذريعاً في الشرق الإسلامي ، وسخر الدين ورجاله ، لجل الناس على قبوله واستساغته ، وفسرت نصوص الدين المتصلة بهذا المعنى ، تفسيراً سقيماً ، نسي الناس معه حقوقهم وحياتهم ، وجهلوا دنياهم وأخراهم ، وحسبوا الفقر في الدنيا ، سبيلاً إلى الغنى في الآخرة ؛ كما أسلفنا القول . ونحن لا ننكر أن هناك آثاراً دينية ، تحمد الفقر وتنوّه بشأنه .

ولكن ما دلالة هذا وما معناه ؟ هل إذا قال شاعر :

جزى الله الشدائد كل خير عَرَفْتُ بِهَا عَدُوِّي من صديق

قلنا إن الشدائد خير . . وألفنا مصلحة أو وزارة ، نسميها وزارة الشدائد

لتذيق الناس لباس الجوع والخوف ! !

وإذا قال القرآن الكريم في وصف حديث الإفك ، الذي طُمِنَ به شَرَفُ

السيدة عائشة — صانها الله وكرمها — :

« لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ . بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ » .

قلنا : إن الإفك خير ، وألفنا جماعة لترويج الزور ، ورَمَى الناس به ،

ودعوة الناس إلى الصبر عليه ! !

وإذا وقمنا على حديث للنبي صلى الله عليه وسلم يمدح الفقر على النحو الذى عُرِيتْ به السيدة التهمة بالإفك ؛ وجدنا من المتدينين من يؤلف طوائف من المتسكمين والمتبطلين ، ليعيشوا فى الدنيا فقراء بأنسين ! !
أجل ، فإن الشدائد خير ، وإن الإفك خير ، وإن الفقر خير ، ما دامت الطبقات الكثيفة من الشعوب ستنام على الضيم ، تاركة النعمة والترف والبذخ لمن قبض لهم هذا كله من المحتكرين والمستغلين ! !
وهذا هو المنطق الذى يراد أن يقبل باسم الدين . . .

إن مصائب الحياة ، قد تكون خيراً لا ريب فيه ، كما تكون السموم دواء فى بعض الأحيان لأعراض الجسد .

وهناك أفراد — بل أمم — تمتلئ حياتها بمظاهر الكبر والجبروت والعدوان ، وتحتاج إلى قمع وتأديب ينفض من كبرياتها ويحذ من عدوانها ، فيبتليها الله بالآلام .

وليس فى شئ من هذا ما يبيح لنا الظلم الاجتماعى ، أو ما يقسه البشر إلى آلهة وعبيد .

وسنة الله فى خلقه ، أن يقيم ميل الإنسانية إذا اعوجت . وأن يُعيد إليها توازنها إذا اختلت ، وأن يرددها لذلك بين السلم والحرب ، والغنى والفقر ، والأمان والقلق .

« وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ » .

فلنترك للقدر الأعلى أن يبرز حكمته ، وأن يتخذ وسيلة ، فلا شأن لنا بذلك ، إنما كُلفنا — ونكلف أبدأ — أن نقيم العدالة بيننا ، وأن نفرغ فى تحقيقها وسعها . وأن نبذل قصارانا ، فى مصلحة الجماعة ، وضمان حقوق الفرد ، متجنبين الفتن والحن ، بكل ما نملك من قوة وتفكير .

الزكاة والضريبة

للمصالح الرسالة وأنواع القياس منزلة كبرى في الفقه الإسلامي ؛ فهي مرجع خصب لكبار الأئمة ، يستنبطون منه شتى الأحكام ، ويواجهون به صور الحياة المتجددة على مرّ الأيام .

وإلى هذه الأصول التشريعية أمر عمر بالقصاص من جماعة ، قتلوا واحداً ، فقتلهم جميعاً ، وإليها كذلك ، لم تعتبر أرض فارس غنيمة ، تقسم أخماساً على الفاتحين ، فأبقى الأرض لأهلها ، وضرب عليها الخراج وعليهم الجزية .

وإليها أيضاً أشار عليّ بجعل حدّ الخمر ثمانين جلدة ، فإن من سكر هذى ، ومن هذى افتترى .

والأمثلة كثيرة ، وليس هنا موضع سردها . . .

زكاة المال وزكاة الدخل :

وقد جدّت في هذا العصر مشكلات مالية ، لا يجوز أن نقف أمامها مكتوفي الأيدي ، كما لا ينبغي أن نتراخى في وضع حلولها ، حتى لا يضطرب الناس في أمر دينهم ؛ من ذلك نظام الزكاة .

فالزكاة ركن من أركان الإسلام الأول ، ومن دعائم أوضاعه الاقتصادية ، التي يكفر من جحدّها ويحارب مع المرتدين من منعمها .

وأنصبة الزكاة في صنوف المال ، حدّدها الدين تحديداً يُعتبر نصّاً في أكثر الأحوال ، ونريد أن نعتبر - قياساً - فيما سنورده من أمثال .

ذلك أن الإسلام أوجب إخراج ربع العشر ، من رأس المال الذي يبلغ مائتي درهم فما فوقها . والزكاة في هذه الصورة ، معتبرة برأس المال فقط ، زاد أو نقص ، أو بقي على حاله ، ما دام قد مرّ عليه عام .

وقد فرض الإسلام - كذلك - زكاةً في الزروع والثمار ، جعلها العشر أو نصف العشر :

والزكاة في هذه الصورة ، قد اعتبرت على أساس الدَّخَلِ الناتج ، حرّاً عليه العام ، أو لم يَمُرَّ ، ولا عبء فيها برأس المال المُغْلَّ - وهو الأرض المزروعة - قَلَّتْ قيمتها ، أو عَظُمَتْ .

ومن هنا نستطيع الحكم ، بأن قاعدة فرض الزكاة في الإسلام ، قد تكون رأس المال ، وقد تكون مقدار الدَّخَلِ .

ونخلص من هذا ، إلى أن من له دَخَلٌ لا يقل عن دَخَلِ الفلاح الذي تجب عليه الزكاة ، يجب أن يخرج زكاة مساوية ، ولا عبء ألبتة برأس المال ، ولا بما يتبعه من شرط .

فالطبيب والمحامي والمهندس والصانع وطوائف المهترفين والموظفين وأشباههم ، تجب عليهم زكاة ، ولا بد أن تخرج من دخلهم الكبير ولنا على ذلك دليلان .

الأول : عموم النص في قول القرآن الكريم « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ » .
ولا شك أن ربح الطبقات الآفة ، كسب طيب ، يجب الإنفاق منه ، وبهذا الإنفاق الواجب ، يدخلون في عداد المؤمنين ، الذين ذكر القرآن أنهم هم . « الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » .

والدليل الثاني : أن الإسلام لا يتصور في حتمه أن يفرض الزكاة على فلاح يملك خمسة أفدنة ، ويترك صاحب عمارة تدبر عليه محصول خمسين

قداناً ، أو يترك طبيياً يكتسب من عيادته في اليوم الواحد ، ما يكسبه الفلاح في عام طويل ، من أرض إذا أغلّت بضعة أراذب من القمح ، ضربت عليها الزكاة يوم الحصاد . . .

لا بد إذاً من تقدير زكاة على أولئك جميعاً ، وما دامت العلة المشتركة التي يناط بها الحكم موجودة في الطرفين ، فلا ينبغي المراء في إمضاء هذا القياس وقبول نتائجه .

وقد يقال : كيف تقدر هذه الزكاة ا وعلى أى نسبة تكون ؟

والجواب سهل . فقد ردّد الإسلام زكاة الثمار بين العشر ونصف العشر ، على قدر عناء الزارع ، في رى أرضه ، فلتكن زكاة كل دخل على قدر عناء صاحبه في عمله .

ومن الممكن إيضاح التفاصيل ، وتفريع المسائل ، وتحديد القيم ، بعد أن يتقرر هذا الأصل الخطير .

والأمر لا يستقل به تفكير واحد ، بل يحتاج إلى تعاون العلماء والباحثين .

أضرار التطبيق الحرفي لنظام الزكاة :

نريد أن تؤثّر النصوص ثمارها في أوسع نطاق ممكن لها ، وألاّ نحصرها في حدود ضيقة ، تبقى بعدها قليلة الجدوى ، قليلة العناء ، وإلا استطاع الأغنياء أن يخرجوا من تبعه الإنفاق المحقوم ولا لوم عليهم ؛ وضاعت على الفقراء أموال كثيرة ، الدين — في الحقيقة — برى من إضاعتها .

فمثلاً ذكر لي أحد التجار أن لديه ٢٠٠٠ من الجنيهات رصيداً لعمله ،

وأنه يجب عليه أن يخرج عنها ٥٠ جنيهاً ، وهو القدر الواجب إخراجه للزكاة .

فإذا اشترى بهذين الألفين بيتاً ، واستغله بطريق الإيجار ، فهل يجب عليه زكاة ؟

والقواعد الموضوعة الآن ، توجب إخراج الزكاة عن الألفين الموضوعين في الخزائن لا يكسبان شيئاً . ولا توجب إخراج زكاة مائة عن الألفين اللذين يكسبان الكثير ، عندما وضعا في بيت للإيجار .

وهذا أثر من آثار التطبيق الحرفي لنصوص الزكاة !!

وهناك أصحاب الميزب التي تؤجر لصغار الفلاحين . يأخذ الملاك الألوف المؤلفة منها ، وهم لم يعملوا بهايدا ، ولم يغبروا قدما ، وينفقون ما يصل إلى أيديهم عن آخره ، فيكاد لا يبقى منه شيء ، لأنهم موقنون بأن ستجيبى إليهم ثمرات كل شيء

وهؤلاء لا تجب عليهم زكاة ، على حين تجب الزكاة على المزارعين السكادحين في أملاكهم ، التعيين طول العام في السعي وراء أرزاقهم .

وهذا أثر من آثار التطبيق الحرفي لنظام الزكاة !! وهو مالا يعقل أن يُقرَّه الدين :

ولو عُرِضَتْ هذه الصُّورُ للأئمة المجتهدين الأوائل لَكَانَتْ لَهُمْ فِي ذَلِكَ آراء حاسمة ، ولَا نَمَاعَ مِنَ الْفَقْهِ الْإِسْلَامِيِّ هَذَا الْجُودِ الَّذِي لَا يَزَالُ يَقْرَرُ أَنَّ أَقْلَ نَصَابٍ تَجِبُ فِيهِ الزَّكَاةُ مِنَ الْفِضَّةِ مِائَتَا دِرْهَمٍ ، وَمِنَ الذَّهَبِ عِشْرُونَ مِثْقَالًا ، مَعَ وَحْدَةِ النِّقْدِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ ، وَضَرُورَةُ تَسَاوِي الْقِيَمِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَغَيْرِهَا !!

على أن إثارة الكلام حَوْلَ أنصبة الزكاة وَقِيمِهَا ، لا يغير من معنى الزكاة الذى أشرنا إليه فى فصل سابق ؛ فهى محدودة المصرف والغرض ، وميزانيتها — ضاقت أو اتسعت — لا تنفق إلا فى مشروعات البر والإحسان ، التى أشارت إليها آيات القرآن :

أما كيان الأمة الاقتصادية ، وما يتصل بهذا الكيان ، من تحقيق للمدالة الاجتماعية ، ونشر للفضائل ، ومحو للردائل ، وتعميم للثقافة ، وعناية بالصحة العامة ، وتنفيذ للمشروعات العمرانية ، ودفاع عن البلاد ، وحماية لقومات الإنسانية ومُثْلِهَا العليا ، وجهاد فى السلم والحرب لذلك كله ؛ فهذا لاصلة له بنظام الزكاة .

وإنما تؤخذ الأموال اللازمة له من شتى الضرائب والالتزامات ، التى تفرضها الدولة ، كيف تشاء ، ومتى تشاء .

هل تغنى ضريبة الأرض عن زكاتها .. ؟

كتب الأستاذ الكبير الشيخ عبد الوهاب خلاف بك تحت هذا العنوان بحثاً قيماً ورد فيه « أن الضريبة التى تحصلها الحكومة عن الأرض الزراعية فى مصر هى خراج توظيف ، ومُلاكُ هذه الأرض الحراجية ليس عليهم فى مذهب الحنفية زكاة »

وهذا النقل من مذهب الحنفية صحيح ، ولكنه عند التمهيع العلمى والرجوع إلى النصوص الخاصة والقواعد العامة فى ديننا الحنيف يكاد لا يرجح . وقد تكون هناك ملابسات أُوْحَتْ بهذا الحكم قديماً . أما الآن فلا وجه لاستقراره .

وليس الرفق بالفقراء هو الذى يبعثنا على مناقشة هذا رأى ، بل كشف النقاب عن الحق المجرد فقط ، ثم تأتى إقادة الفقراء منه تبعاً .

إن الزكاة — كحق لله في مال الإنسان — شيء يفاير الجزية والخراج والضرائب الأخرى .

ومصارفها التي وضعها القرآن الكريم ، وحصرها في طبقات معينة ، غير مصارف الأموال التي تستولى عليها الدولة بأي اسم آخر ، ولأى سبب آخر . ولا مكان للخلط بين حصيلة الزكوات ، وموارد الخزينة الأخرى البتة . فالأساس في فرض الضريبة ، الإيفاق في المصالح العامة ، التي تعود — بطريق غير مباشر — إلى دافعيتها ، في شكل حراسة للأمن ، وتمهيد للطرق ، وإقامة للجسور ، وحفرٍ للترع . . الخ وما دامت الحكومة تخدم الفرد في نواحٍ شتى ، فمن حقها عليه أن تتقاضاه ثمن هذه الخدمة .

فالضريبة إذاً سدادٌ لمصلحة شخصية .

أما الزكاة والصدقات فأساس فرضها تسكيف المؤمن ، أن يقوم بشيء من حق أخيه المؤمن عليه ، وقوامها البر والإيثار والرحمة . ولا يجوز — البتة — صرفها في المصالح المادية العامة وقد كان الإسلام يفرض على المسلمين الزكاة بأنواعها ، ويفرض على غيرهم ضريبة الجزية ، وهي على الأشخاص ، والخراج ، وهو مضروب على الأطيان .

فإذا أسلم المرء سقطت الجزية من عنقه ، وسقط الخراج عن أرضه ، وعومل كأي مسلم آخر .

وقد أخرج أبو داود في سننه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنما الخراج على اليهود والنصارى ، وليس على المسلمين خراج » . وروى أبو داود كذلك : « ليس على مسلم جزية » .

ولا نريد الآن ذكر ما صنعه عمر في أرض السواد ، أيام كان أهلها كفاراً :

أما بعد إسلامهم ، فمسألة الخراج هذه ، لا ينبغي أن تتجاوز حدود الذكريات التاريخية ، كمسألة الجزية سواء بسواء .

للدولة أن تفرض من الضرائب ما تشاء ، في حدود المصلحة العامة ، وليس هذا بكافٍ مطلقاً عن إخراج الزكاة .

ولو صح سقوط الزكاة في الزروع والثمار لَسَقَطَتْ كذلك في التجارات ، وسائر الأموال التي تلاحقها الحكومة بالضرائب الباهظة .

بل الحقيقة أن ضرائب الأتليان الآن ، أقل كثيراً مما ينفق عليها من قِبَلِ الحكومة .

ففي ميزانية ١٩٤٩ — ١٩٥٠ كانت قيمة هذه الضرائب ٤,٧٠٠,٠٠٠ جنيه ، بينما بلغت ميزانية مصلحة الري وحدها ٦,٢٠٠,٠٠٠ جنيه .

أى أن الدولة ترهق بعض الطوائف الأخرى من دافعى الضريبة ، لكي تحفظ للأرض الزراعية خصبها وصلاحياتها ومستوى إنتاجها .

فكيف تعفى هذه الأرض من الزكاة ؟ ولماذا ؟

إن نص القرآن عام ، فى أن كل مسلم يُؤْتَى الزكاة .

فما الذى يخص هذا النص من الدلائل الأخرى ؟ .

والسنة صريحة فى أن المسلم لا يدفع جزية ولا خراجاً .

فما الذى يحملنا على تضيق مصارف الزكاة ، وتسمية ما يدفعه الفلاح

خراجاً ، يذهب إلى المصالح العامة ، ولا ينتفع به فقير ولا مسكين ؟ !

الأوضاع الاقتصادية

لله حق في مال الإنسان ، فهو واهبه الأول ، وللجماعة حق في مال الإنسان فهي البيئة التي نبت فيها وعاش في جوها ، وخدمته شتى عناصرها ، خدمة مباشرة أو غير مباشرة ، فلها أن تتقاضى ثمن ذلك .
وكما أن حرية الإنسان الشخصية مقيدة بالألا يُضَارُّ منها المجتمع ، فكذلك حرته المالية .

فلمجتمع أن يتدخل في مال الإنسان ، التدخل الذي تملبه الاعتبارات الدينية والمدنية ، التي يراها لازمة ، لاستقامة الأمور ، وإقرار المصلحة .
ولما كان رأي الدين : أن « الضرورات تقدر بقدرها » ، فدى تدخل المجتمع في مال الفرد ، يضيق ويتسع ، على ما توجى به مقتضيات الأحوال العامة .
فإطلاق الملكيات أو تقييدها ، ووضع حدٍ أعلى أو أدنى للضرائب على رأس المال أو على الدخل ، وجعل المرافق العامة ملكا للدولة أو للأفراد ، هذه كلها أمور يُخضعها الدين لحاجات الناس وأطوار الزمن .

ولنا أن ننظر إلى حاجات شعبنا ، ومطالب عصرنا ، وأحوال وطننا ، ونضع لأنفسنا ما نشاء من النظم الاجتماعية والاقتصادية ، التي نراها كفيلة بتحقيق أهدافنا الكبرى ، في ميادين الإصلاح العام .

والشعب — في الحقيقة — يدفع باليمين ما يأخذ بالشمال . فما يؤخذ منه ، يُردُّ عليه وينفق في مصلحته .

ولا يجوز — ألبتة — أن تستغل أموال الشعب في النواحي الشخصية لأحد ، لينفق منها على زينته ، أو يسرف في أبهته .
فما لهذا تشرع الضرائب ويحل جمعها .

والحكومة الصالحة هي التي ترتب أبواب ميزانيتها لخدمة الشعب والنهوض به ورفع مستواه .

وإن كنا — مع الأسف — نرى مسارب المتع الشخصية لا آخر لها ،
فيا تنفقه الحكومات ، باسم الشعب .

وخطط الإصلاح التي رسمناها توجب علينا — ديناً ودنياً — أن تشكل
أوضاعنا الاقتصادية على نحو جديد ، إن كنا حقاً جادّين في دفع غوائل
الفوضى والفساد عن بلادنا

وأمامنا صورٌ حيّة ، وبرامج مدروسة ، وأنظمة مطبقة في كثير من
أقطار الأرض ، يجب أن نقبس منها ، ما نقيم به العوج ، ونحسم به الداء .
ونقترح — على سبيل المثال لا على سبيل الحصر — الحلول الآتية لإنهاء
بعض مشاكلنا السياسية والاجتماعية والأخلاقية :

(١) « تأميم » المرافق العامة ، وجعل الأمة هي المالكة الأولى ، لموارد
الاستغلال ، وإقصاء الشركات المحتكرة لخيرات الوطن ؛ أجنبية أو غير
أجنبية ، وعدم إعطاء أي امتياز فرديٍّ من هذا القبيل .

(٢) تحديد الملكيات الزراعية الكبرى وتكوين طبقة من صغار
الملاك ، تؤخذ نواتها من العمال الزراعيين .

(٣) فرض ضرائب على رؤوس الأموال الكبرى يُقصد بها تحديد
الملكيات غير الزراعية .

(٤) استرداد الأملاك التي أخذها الأجانب ، وإعادتها إلى أبناء البلاد ،
وتحريم تملك الأرض المصرية على الأجانب ، تحريماً مؤبداً .

(٥) ربط أجور العمال بأرباح المؤسسات الاقتصادية ، التي يعملون فيها
بحيث تكون لهم أسهم معينة ، مع أصحابها في الأرباح .

(٦) فرض ضريبة تصاعديّة على التراكات ، تنفق في وجوه الخير على النحو الذي أشار به القرآن إذ يقول :

« وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا » .

هذه خطوط صغيرة ، نعهد بها لجعل الأمة طبقات متوازنة ، لا طبقات متعادلة ، ونختتم بها المآسى المريعة التي تمخض عنها نظام الطبقات المعروف بمظالمه ومخازيه .

ثم يجب بعدئذ أن تمحي الأمية محوآ تاماً ، وأن تعمم مراحل التعليم الابتدائي والثانوي ، وأن يجبر كافة الأفراد على الانتظام في التجنيد العسكري وأن تكافأ الفرص ، أمام أبناء الأمة جميعاً ، في أخذ نصيبهم من الحياة الصحيحة وأن تلغى الألقاب الجوفاء ، فلا تبقى إلا الألقاب العلمية والعسكرية ونحوها ، وأن تصدر ضروب التحلل الخلقي والإلحاد الديني ، وأن يعنى بتربية الطفولة تربية طيبة ، وتوجيه الرجولة توجيهاً سديداً فاضلاً .

وأن تتضمن ميزانية الدولة لتنفيذ هذا النهاج ؛ فلا يجوز أن تكون هناك عوائق اقتصادية ، تحول دون أن تنتفع به الأمة وترتفع .

ولو لم يبق لكل فرد من أفراد الشعب إلا قوته الضروري ، لما جاز أن تتراجع الدولة في تحقيق هذا البرنامج ، الذي تعلن به الحرب على الظلم والجهالة والاستعمار !! .

أجل فلتفرض الدول على الأملاك ما تشاء من القيود ، وعلى الأموال ما تشاء من الضرائب ، وعلى الأوضاع الاقتصادية ما تشاء من الأنظمة ، فإن الدين ظهرها في هذه الوسائل السهلة أو الصعبة ، ما دامت تريد من ورائها

حماية جمهور الشعب ، من أن يسقط فريسة سهلة للاستعمار الداخلى أو الخارجى
على السواء . . . !

وفى سبيل الإبقاء على كيان الأمم ، يهون البذل عن سعة ، والإنفاق
فى سخاء . !

مفاتيح مؤسفة :

كنت أتردد على الريف بين الفينة والفينة ، بغية الاستجمام ،
فما أدركتني قط ، عواطف الشعراء ، حين كنت أعيش بين أهله ،
وأخالطهم عن كثب .

وما فرج عن قلبى ما يتوهم وجوده هناك ، من الماء والخضرة
والوجه الحسن . !

فإن نظرتى للأشياء واقعية اقتصادية ، لا أثر فيها للخيال ، ولا تطلع
فيها للجمال . .

الماء ؟ إنه عكبر ، يشربه الناس ، ويشربون معه شتى الجراثيم .
فهو للارتواء وللداء معاً !

والخضرة ؟ إن هذه الزروع البانعة ، يمشى فى ظلالها المستأجرون الملكى
أو الملاك المدينون ، وعلى ملامحهم من غبار الأرض ، قتامة حافل بالذئب من
المستقبل المريب ! وحتى الدواب سرت إليها — هى الأخرى — العدوى ،
فهى عيجاف ساهمة ، برغم نشاط وزارة الزراعة ، فى تلقيحها بالأمصال
الواقية ...

والوجه الحسن ؟ أين ترى الوجوه الحسان بين هذا الماء وهذه الخضرة ؟
إن الجمال الإنسانى مسيخ فى فتيان الريف وفتياته .

فالكثرة الساحقة من الرجال والنساء ، فيها صُورٌ مجلّة ، لأبناء آدم .
أما الملامح التفصيلية ، ففيها تحريف كثير ودمامة والتواء ، ترك على
الجبين السكادح عروقا نافرة ، وعلى الوجوه الساهمة غصونا غائرة .
ثم هناك شلل في ثناء هذه الأجسام ، قلما ترى معه الهامات الفارعة ،
والمضلات الحافلة .

ولولا إلغاء الجيش المرباط ، لرأينا في شوارع المدن « عينات — نماذج — »
كثيرة لهذه التماسة السائدة ، خفف من شدتها بعض التجميل والتصحيح ،
الذي يفرضه النظام العسكري .

تلك هي حال الريف . حال المستودع الذي تأخذ منه الدولة الرجال
والأموال . وتترك أسباب الفناء تعمل فيه عملها الشنيع . .

فإذا تركت الريف إلى المدن ، وجدت مظاهر الرخاء والنعمة منتشرة هنا
وهناك ، ولكن حظ المصريين في هذا كله ضئيل . إذ أن الميادين والشوارع
الكبرى تكاد تكون وقفاً على رؤوس الأموال الأجنبية .

ولسنا ننفي أن للوطنيين حظاً في هذه الأعمال والمروعات الضخمة .

غير أن الأجانب يظفرون منها بنصيب الأسد .

ولا تزال الأحياء الوطنية أمثلة باقية ناطقة بالفوضى العمرانية ، والهون

والهوان المادي والأدبي الذي تعيش فيه جمهرة الشعب .

وكم في الغرف الحفيرة ، والأزقة المظلمة ، والخرائب المتهدمة ، من كفايات

مقبورة ، وعزائم مقهورة ، ونفوس نسيت النور من طول ما قبعت في الظلام .

عندما أزور « مصر الجديدة » يلفت نظري ما يبدو على هذا الحى الفخم

من سعة وجمال ونظافة ، وما يستمتع به أهله من راحة وطمأنينة ، وتذوق

للحياة الطيبة .

وليس هذا ما أريد أن أسجله ، إنما الذي أريد تسجيله ، أنه — إلى جانب

هذه القصور الشاهقة ، والمباني الرائعة — توجد أرض أخرى ، عليها بيوت كأوكار الثعالب ، وفيها وحشة كأنما خُلِيتْ عليها من صمت القبور . يقطنها أقوام ، عضَّهم البؤس ، ولفَّهم في أرديته الكئيبة .

وهذه الأرض — بما عليها من جدران وقطعان — تسمى « عزبة المسلمين » . والحق أن هذه التسمية ترك في القلب ألماً مُمِضاً وأسفاً عميقاً ! . وتجمل الرجل ينجل من نفسه ، ومن جماعته ، ومن دولته ... وتجمله يشمر بما في هذه التسمية من غمز وتحقير .

لا لاسلمى مصر فحسب ، بل للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها . ولعل سر هذه التسمية ، أن شركة أجنبية ، هي التي تولَّت بناء الجزء الفخيم في الحى الفخيم ، تاركة لنا أن نمر عزبتنا الحقيرة بأيدينا ، إن استطعنا التعمير .

ونحن مذهولون عن ذلك ، لأننا مقيدون بميراث ثقيل ، من سوء الفهم في الدين والدنيا جميعاً . مشغولون عن التعمير المادى والأدبى ، بالثرثرة الإصلاحية ، والألاعيب السياسية ، والمشاغل الشخصية .

ولا علينا أن تكون منزلتنا الاجتماعية ممثلة في عزبة إلى جانب قصور . فإن منزلتنا السياسية في العالم ، منزلة الخرب من المعمور ، أو الظلام من النور . .

وقالوا : إن الحكومة صحَّ عَزَمُها على مكافحة الجهل والفقر والمرض . وسواء كان الغرض من المكافحة تأمين البلاد ضد الشيوعية . أو قطع حُجَّة الإنجليز في صلاحية مصر للاستقلال . أو الرحمة الحقيقية بعباد الله ، من أن تأتي على بقيتهم أخطار هذا الثالث الوبيل .

أَيَّامًا كَانَ الْأَمْرُ ، فَإِنْ هَذَا عَزَمَ نُسْرُهُ بِهِ ، وَنَرْجُو أَنْ يَأْخُذَ طَرِيقَهُ إِلَى الْحَيَاةِ وَالنَّمَاءِ .

لَكِنْ بَوَادِرِ التَّنْفِيزِ إِلَى الْآنَ تُوْحِي بِأَنَّ الْأَمْرَ هَزَلٌ لَا جِدِّ .
وَالدَّعَايَةُ الَّتِي سَبَقَتْ مَشْرُوعَ الْمَسَاخَاةِ ، لَمْ تَتَمَخَّضْ عَنْ أَمْرِ ذِي بَالٍ .
فَقَدْ وَكَلَّ إِلَى « الرُّوْتِينَ » الْحُكُومِيُّ الْمَعْتَادُ ، وَإِلَى بَعْضِ الْمَجَالِسِ وَالْمَصَالِحِ الْمَعْرُوفَةِ ، أَنْ تَقُومَ عَلَى إِنْقَازِ الْبِلَادِ مِنْ أخطارِ هَذَا الثَّالُوثِ الْفَتَاكِ .
وَمَعَ أَنَّ الْحَالَةَ تَحْتَاجُ إِلَى تَجْنِيدِ عَامٍ ، وَإِلَى تَسْخِيرِ أَبْوَابِ الْمِيزَانِيَةِ —
جُلُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ كُلُّهَا — لِإِنْقَازِ الْوَطَنِ مِنْ هَذِهِ الْأَعْدَاءِ الدَّاخِلِيَةِ الْمُتَغَلِّغَةِ فِي تَرْبَتِهِ ، مِنْ قَدِيمٍ .

إِنَّهُمْ لَوْ أَلْفَوْا وَزَارَةَ مَخْتَصَّةً بِعِلَاجِ هَذِهِ الْمَشَاكِلِ ، عَلَى نَسْقِ وَزَارَةِ الشُّؤْنِ الْاجْتِمَاعِيَةِ ، مَا اسْتَبْشَرْنَا بِذَلِكَ خَيْرًا

فَمَشَاكِلُنَا أَعْقَدُ مِنْ ذَلِكَ وَأَعْصَى ، عَلَى مِثْلِ هَذَا الْعِلَاجِ الضَّعِيفِ .
غَايَةُ مَا سَيَحْدُثُ ، أَنَّ أَمْوَالَ تَرْصُدَ ، وَمُوظَّفِينَ يَعْينُونَ ، وَمَشْرُوعَاتٍ يعلَنُ عَنْهَا ، ثُمَّ يَبْقَى الْجَهْلُ وَالْفَقْرُ وَالْمَرَضُ ، كَمَا بَقِيَتْ أَوْضَاعُنَا الْاجْتِمَاعِيَةُ —
مُخْتَلَةٌ ، لَمْ تَصْلَحْهَا الْوِزَارَةُ الَّتِي لُفَّتْ بِاسْمِهَا ، وَكُوِّنَتْ لِإِصْلَاحِهَا .
وَعِنْدَ مَا يَذْهَبُ الْمَرِيضُ إِلَى طَبِيبٍ يَشْخُصُ لَهُ الدَّاءَ ، تَشْخِصًا مَذْلُوطًا ،
ثُمَّ إِلَى صَيْدَلِيٍّ يَرْكُبُ لَهُ الدَّوَاءَ تَرْكِيبًا مَسْمُومًا .

فَأَنَّى يَجِيءُ الشِّفَاءُ ، وَكَيْفَ تَنْتَظَرُ النِّجَاةُ ؟؟

إِنَّ الْحُكُومَاتِ الْمُتَعَاقِبَةَ ، تَتَجَاهَلُ مَصْدَرَ الشَّرِّ وَأَسَاسَ الْبَلَاءِ ، وَهِيَ تَبْذُلُ الْأَمْوَالَ ، وَتَسْخَرُ الرِّجَالَ لِمَسْلِ الظِّلِّ الْمَرْسُومِ عَلَى الْأَرْضِ ، وَلَا تَفَكِّرُ فِي أَنْ تُزِيلَ الْجِسْمَ ، الَّذِي يَلْقِيهِ إِلْقَاءً وَيُثَبِّتُهُ إِثْبَاتًا . . .

وَقَدْ تَنَكَّمَشْ — لِمَوَاسِلِ خَارِجَةٍ — ظِلَالُ الْأَحْزَانِ الَّتِي تَغْمُرُ أَبْنَاءَ هَذَا الْوَادِي ، وَلَكِنَّهَا لَنْ تَزُولَ ، إِلَّا إِذَا زَالَتِ الْأَوْضَاعُ الْمَعْوِجَةُ ، وَإِلَّا إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ ، فَلَمْ تَجِدْ أَشْعَتَهَا عَائِقًا ، يَرُدُّ عَنْ النَّاسِ أَسْبَابَ الضِّيَاءِ وَانْ . . .

المجتمعات المنحطة لا يزدهر فيها دين

مهر ضائع :

حيث يوجد الهوان المادى والأدبى ، لا يُرجى خير ، ولا يؤمن شر .
فالإنسان المغلق الحامل المحطّم ، لا ينتفع بالدين ، ولا ينتفع به الدين .
ما الذى يفيد الإسلام من رَجُلٍ طُمِسَتْ حياته ، وشاھت مَلَكَاَتُهُ ،
وعاش على ظهر الأرض حَفَنَةً من ترابها ، أو قِطْعَةً من صخورها ؟
إن الإسلام لا يستفيد شيئاً من هذا الشخص . بل إنه يُضَارُّ به ،
ويَهُونُ فيه .

والإناء الملوّث يُزْرِى بأطهر السوائل ويبخس قيمتها .
كذلك الشعوب العاجزة الكسول ، تحط من مكانة الأديان التى تعتقها ،
وتهبط بمستوى العقائد التى تنتمى إليها . ! !

وكما أن الدين لا ينتفع بتابعه الهين ، فإن التابع الهين لا يحسن الانتفاع
بما سبق إليه ، من موارث نفيسة ، ولا مما أحيط به من مبادئ غالية ،
كالجاهل الذى يلقى نفسه فى مكتبة حافلة ، أو المعمود الذى يواجه مائدة مفعمة .
بل إن الأتباع الحق ، كثيراً ما يفرضون سفهمهم على أسى الحقائق .
فبدلاً من أن يرتفعوا معها إلى القِمَّة ، يهبطون بها إلى السفوح ! ! .
ومن ثمَّ يجب أن تقرر هذه الحقيقة ، فى علاجنا لمشاكلنا المقدَّة :

إن شعوب الشرق الإسلامى تحتاج — قبل أن تفهم الإسلام وقبل أن
ينتظر منها إعزاز الإسلام — إلى جهود جبَّارة ، لرفع مستواها المادى والأدبى .
أى إلى تصحيح إسمانيتها أولاً .

حتى إذا كَوَّنَّا الإنسان الذي يعقل ما يُخَاطَبُ به ، ويعرف واجبه نحوه ،
قلنا له : انصر ربك ونفسك ، إذا شئت الحياة الكريمة في يومك وغدك .
أما جهود المصلحين — قبل اتخاذ هذه الخطوة — فهي أمواج من
الماء ، تتدفق على صحراء من الرمال . . هيهات أن يكون لها ثمر ! ! .

ما الدين :

والدين في حقيقته ، ليس إلا إكمالاً لمشاعر الإنسان ، وتصحيحاً لمواهبه .
فهو عقل يحسن التفكير ، وهين تحسن النظر ، وأذن تحسن السمع ،
ويد تحسن العمل . . .

والمؤمن — على هذا — إنسان ناضج الفهم ، والتأمل ، والحكم
على الأمور .

إنسان جيد الإنتاج والآثار والتصرفات . . .

فإذا اضطربت هذه المعاني في نفسه ، اضطرب معها مصدر الإيمان في قلبه
ولبَّه ، وتقلَّصت معها حقيقة إنسانيته .

ولا تزال طوائف من الناس تفقد إيمانها وإنسانيتها معا ، حتى تدمغ
بوصف القرآن لها .

« إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ » .

والمرء يستحيل دابة ، يوم يموت فيه عقله المفكر ، وترتكس فيه
مشاعره البقطة ، فيصبح غير مسئول عن سمعه وبصره وفؤاده ، لأنه

ليس له من ذلك إلا ماله الحيوان السائم ، حواس مسخرة في أغراض الحياة الدنيا فقط .

وأمثال هؤلاء هم — مع الأسف العميق — قوام الجماهير الفقيرة ، التي أعمأها الجهل ، وأوهاها المرض ، وأهانها الفقر ، قوام الكُتَل الضخمة من البشر ، الذين يزخر بهم الشرق ، ولا يتقدم بهم إلى الأمام خطوة ، بل يتأخر بهم خطوات ، أوهمُ التراب ، الذي تبرد فيه حرارة الإسلام وتتبدد قواه ، كدين موجه فعال .

هذا الهوان المادي والأدبي ، لا ينبغي حُسْبَانُه دينا ، أو ظِلًّا لدين .
فهو عار ولده ييئس آئمة لا تتصل بالدين إلا ادِّعاء ، ولا يتصل بها الدين إلا مُشَوَّها مظلوماً مفترى عليه .

ولكي نطمئن إلى وجود ديانة صحيحة وأتباع محترمين ، يجب أن نسارع إلى محو كل أثاره للفقر والجهل والمرض ، وأن نخلق جيلا جديداً ، يصلح — بفطرته — لأداء الرسالات الكبرى ، وحمل أعبائها .

رجال ورجال

كلما نظرت إلى الرجال والنساء ، في الريف البائس المكروب ، أو في زحام الأحياء الوطنية بالمدن ، أو حيث أعمل لوعظ الناس (١) بالمساجد وأشباهاها من الأندية الدينية — كنت أرى أن هناك حلقة مفقودة ، لا بد منها ، ليتصل هؤلاء الناس بالدين ، اتصالاً مُجدياً عليه وعليهم .

فقد يحدث أن تبذل وقتاً ، في تطبيب دابة جريح ، وأن تبذل الوقت نفسه في إصلاح سيارة عاطلة ، أو طائرة مهيضة .

ولكن النتائج التي تحصل عليها من وراء هذه الجهود ، تتفاوت تفاوتاً كبيراً .

والذي يركب الدابة بعد شفائها ، غير الذي ينطلق بالطائرة بعد إصلاحها . والتبشير بالدين بين الشعوب البليدة الوانية المترنجة ، قد يكسب الدين عدداً من الأنصار الكسالى ، أو الأتباع السكارى .

فهل هذه الثمرة ، هي التي تحصل عليها ، لو جئت من بداية الأمر ، فعملت على فتح العقول المغلقة ، وإنماء المواهب المشلولة ، وإعزاز النفوس الكسيرة ، وإبراء الأكه والأبرص ؟

فإذا قدمت للدين بعد ذلك أحداً ، قدّمت قُوَّةً ، يعمل بها ، لآعقبه يضطرب حيالها . . . !!

إن النبيّ صلوات الله وسلامه عليه ، وَجَّهَ دعوته الأولى للعرب ، وهم — على كُفرهم الموروث — قوة لا يُستهان بها في موازين الرجولة .

أجسام لم تستنزفها الأمراض المتوطنة ، وكفايات خُلقية عارمة ، لمّا كانت في جانب الضلال ، جعلته مرهوب المدوان ، فلما نقلها صاحب الرسالة العظمى

من النفى إلى الرشاد ، جعلت الحق مهيباً ، وطوّفت به فى أقطار الأرض ،
تصارع دونه الأبطال ، وتزلزل أمامه الجبال .

وأمام الشعوب الإسلامية الآن مراحل من صحة الأبدان والأخلاق ، ومن
كفاية العمل والنظام ، ومن روعة الإنتاج وإخصاب المواهب . . .
مراحل طويلة يجب أن تقطعها على عجل ، حتى تقف على قدم المساواة ،
أمام شعوب الغرب الكافرة بالإسلام ، بل المتمردة على الديانات جملة .
إن هذه الأمم المحسوبة على الإسلام ، لن ترفع به رأساً ، ولن ترفع له
علماً ، ما دامت تعيش فى هذا الدرك من الهوان الإنسانى .

قيمة العقل فى الدين :

إن حِدَّةَ الذكاء ، وبقظة الفكر ، واستنارة الرأى ، عناصر لا بد منها
فى تكوين الإيمان الصحيح ، فإن الإيمان معرفة بلغت حدّ اليقين ، واتّفت
معهما الريبة .

وحيث لا يوجد الإدراك الواضح ، والفهم الناضج ، يصبح اليقين غير ذى
موضوع !!! .

ولا يحسب أحد أننا بذلك نظلم الجُلهاء ، أو نغمط الحقّ حقهم — إن
صحت لهم حقوق — بل إننا نستوحى هذا الحكم ، من نصوص القرآن
الكريم نفسه .

فالعقول الذكية وحدها هى التى تستطيع اختراق أسرار الكون ، ومعرفة
آيات الله فى شتى الأمكنة والأزمنة .

« إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » . . . « إِنَّ فِي خَلْقِ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ » .

والعقول الذكية وحدها ، هي التي تميز الحق من الباطل ، وتعرف حقائق الوحي ، من نزغات الهوى وتلفيق الضلال :

« أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ؟
إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ » .

والعقول الذكية وحدها ، هي التي تستفيد من عبر الماضي ، وتنتفع بتاريخ الإنسانية الطويل ، وقصص الأبطال أو الأندال ، من المصلحين أو المفسدين : « لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ » . . .

ولا تكون الحكمة في معالجة الأمور ، والدقة في الحكم على الأشخاص والمسائل ، والبصر بالمقدمات والنتائج ، إلا لأصحاب العقول الراجحة ، والمدارك الواسعة ، والمواهب الرائعة :

« يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ » .

وتربية العقول ، وإذكاء المواهب ، وتفتيق الملكات الإنسانية ليس أمراً هيناً .

فراحل التعليم في المدرسة ، ومراحل التجريب في الحياة ، واستيراد الأفكار البعيدة ، وضم ما لا نعرف إلى ما نعرف ، والنظر في الجديد نظرة تلطف وإيلاف ، لانظرة جمود واعتساف ، والتطويف في آفاق العوالم المادية والأدبية .

هذه جميعاً ، وسائل لترقية العقل الإنساني ، ثم هي بعد وسائل العقل السليم لمعرفة الله ، وحسن الإيمان به ، والإفادة من دينه .

إن عمل العقل الكلية في آيات الوحي ، هو عينه عمل الحشرات

القارضة في أوراقه ، عندما يدبُّ فيها البلى ، تتلفها ولا تعرفها ، وتظلمها ولا تنصفها .

وذاك سر التدهور الاجتماعى ، بين جماهير الأميين من المسلمين وغيرهم .

وما أبعد هذه الكتل الأمية عن الدين ! مهما زعموا لها من إيمان المجاز !! .

نعم قد يكون هناك من ذوى العقول القوية من يَحِيدُ عن مناهج الاستقامة ، وأصول الفضائل ، ومن يتمرد على تعاليم الدين .

بيد أن هذا يقلُّ من قيمة العقل ، ولكنه يبين لنا خطورة الشهوات الجامحة ، والأهواء التى قد تصرف المرء عن الحق وهو يعرفه .

ثم إن محاربة الجهل أن يطغى على العقل ، لاتغنى عن محاربة الفساد أن يتطرق إلى الفؤاد .

والنكسة التى أصابتنا فى تاريخنا الطويل ، جاءت من فساد عقول العامة ، ومن فساد ضمائر القلة الحاكمة .

فإذا أصلحنا العقول بالتعليم الشامل ، صحَّحاً الشعب ، فلم يبق أمام فاسدى الضمائر مُتَّسَعٌ للبقاء .

ذلك أن الشعوب المتعلمة قوة ، يجرف تيارها القذى والغثاء :

« فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ

فِي الْأَرْضِ » .

فلنعملْ — على عجل — لرفع المستوى العلمى ، فهذه وحدها هى

السبيل .

زعموا أن ظريفاً ، سمع رجلاً يشكو إلى الله عِلَّتَهُ ، ولم تكن عِلَّتُهُ من داء واحد ، فأخذ يسأل الله أن يشفي له بصره الرمود ، وبطنه الممود ، وقلبه المضطرب وقدمه المختلج . . .

فقال له الظريف : يا أخى بدلاً من أن يُرَقَّعَ فيك هذا كله يأخذك ويخلق غيرك !

هذه الفكاهة التي أداروها حول المريض المسكين ، ذكرتها في نفسي عقب إلقاء عظة طويلة على المصلين في مسجد السيدة زينب ، وبعد نظرة عميقة إلى الملل النفسية والعقلية والبدنية ، التي تعمل عملها في جمهور هذه الأمة ؟ إن هناك كثيرين من أبناء الجيل الحاضر يَمَرُّ على الإصلاح حالهم ، لأنهم مصابون من نواح شتى ، ولأن الالتواء الذي حدث في نظرهم إلى الحياة ، يكاد يصبح فيهم خليقة ثابتة ، فأن لا ترقع خرقاً حتى يظهر لك فتق جديد .
وقديماً قالت امرأة عجوز :

أضحى يمزق أثوابي ويضربني أبعد شبيبي يبنى عندي الأدبا ؟
إنني أنصح بالاتباع إلى الناشئة ، والعناية بمفارسها ، حتى يتم نماؤها على خير الوجوه ، فإن الأجيال التي مرنت على الظلام تستغرب النور .
وما أصدق قول الله عز وجل :

« فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ » .

نتائج محزنة

يربو عدد المسلمين في العالم ، على عدد اليهود أربعين ضعفاً .
وقد مثل هؤلاء اليهود مع المسلمين ، الرواية التي يمثلها اللص العادي مع صاحب البيت الوادع .

وبدلاً من أن يقاد المجرم إلى التحقيق ، وينتصف منه لصاحب الحق المضمون ، فإن اللصوصية الدولية أهدرت الحق الواضح ، ومن ورائه أربعمائة مليون مسلم ، وآزرت الباطل السافر ، ومن حوله عشرة ملايين يهودي .
لأن معسكرات السياسة ، ودية القاعة على المنافع المحضة ، استهانت بالكثرة المحققة ، ولم تحرص على كسبها ولم تبال بببذها .
على حين خطبت ود اليهود ، وسترت مخازيهم وزوقت باطلهم وحاربت في صفهم !!!

ولماذا كل ذلك التجنى والجحود ؟ لأن القلة اليهودية التي تحدثنا — على كثرتنا — تسلحت بآخر ما وصل إليه العقل الإنساني ، من قوى علمية ومادية ، فأصبحوا بين أحزاب العالم المتحضرة موضع رجا وخوف ، على حد قول الشاعر :

إذ أنت لم تنفع فضر فأنما يرجى الفتى كما يضر وينفما
فأما المسلمون ، فلا تزال أحوالهم العامة ، تجعلهم موضع الأسى من الصديق ، وموضع الشماتة من العدو .

ولا ريب أن هذا الظلم الفادح ، الذي أوقعته بنا السياسات الكبرى قد هزنا هزاً ، واستيقظنا منه على فارعة أثارت الحفاظ ونهتتنا إلى ما يبنى عمله ، لضمان مستقبلنا بعد ضياع حاضرننا .

فلنذكر أن الإسلام يجعل المسلم أهلاً للنصر ، يوم يكون ذلك المسلم أرجح في ميزان الحق ، من عشرة آخرين .

« إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ . وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ » .
والكلمة الأخيرة في الآية هي مفتاح الموقف .

فعندما تكون النفسية الإسلامية والعقلية الإسلامية أعظم اتساعاً ،
وأطول باعاً وأسبق في ميدان المعرفة ، وأقدر على إنشاء الحضارة ، وأرسخ
في حماية المثل العليا ، وعندما تكون الأمة العقلية والاجتماعية في جانب
غيرنا ، لا في جانبنا ، وعندما نوصف بالذكاء ويوصف عدائنا بالغباء ويقال
فينا : إننا نفقه ، وفي خصوصنا : إنهم لا يفقهون كما تنص الآية الكريمة ...
عندئذ فقط نحل قضايانا بأيدينا ، ولزوم الحياة أن تتبع قواعد العدل ،
ثم تمنو الحياة لنا طوعاً وكرهاً ، لأن البقاء الأصلح حتماً . . . !
وقبل أن نصل إلى هذه المرحلة ، لن يقدر المسلم أن يقف أمام عشرة
بل سيحدث العكس ، وسينتصب اليهودي أمام عشرة منا . . . لا . بل إنه
قد وقف — فعلاً — أمام أربعين . . . ! ! !

طأوا ؟

ولك أن تسأل دَهْشاً : لم تكون هذه أحوالنا وأوصافنا ؟ ولم تمضي
سُنَّةُ الحياة فينا على هذا النحو القاسي ؟ أخلقنا من طينة غير طينة هؤلاء
الذين يسودون الدنيا ويقودونها . . ؟

والجواب كلا . . . فسادة اليوم ، هم عبدة الأمس ، وعبدة اليوم
هم سادة الأمس

والنفس الإنسانية تذوى وتنمو ، وتنكش وتمتد ، على حسب التربة
التي تحيا فيها ! ! ولو أتاحت لشعوب الشرق الفرص التي أتاحت لشعوب
الغرب لَبَدَّلَتِ الأرض غير الأرض .

أست ترى أرجل البشر تكبر على طبيعتها هنا وهناك ؟ حتى إذا ذهب
إلى الصين — حيث يلبس البعض أحذية من حديد — وجدت أقداماً
ضامرة ، شلَّ الحديد نماءها منذ الطفولة ! !

إن لدينا أنظمة ، هي وأحذية الحديد الصينية سواء . . أنظمة تركت وراءها حطاماً من الأجيال الهامدة ، التي عاشت عمرها في صراع مع الضرورات المذلة .

ومثل هذا الصراع يموت فيه المهزم موتاً مادياً ، محروماً من العافية والاستقرار ، ويموت فيه المنتصر موتاً أدبياً .

فأني التقي والازدهار لمن يقنع في حياته بنيل ضروراته ؟

أنظمة تجعل الحياة في المجتمع دون الحياة في الغابة .

فإن الطيور تغادر أعشاشها ، سعيًا وراء رزقها ، فتغدو نخاصاً ، وتروح بطاناً ، فنتيجة سعيها تكون مكفولة .

فكيف الحال في مجتمعات يرهق العامل فيها نصيباً ، ويقضي حرماناً . ؟

أجل . . قد تكون آجال الحيوانات في الآجام رهنا بجوع السباع

وشبعها ، أفترض الحياة في بعض ربوع الشرق أفضل من ذلك ؟

لا تزال هناك أمم تعطى حق الحياة لكبارها أولاً . . ثم لصغارها

ما عنت وجوههم لهؤلاء الكبار .

وما استغنى الكبار عن اقتراس هؤلاء الصغار . وإلا فالحكم للسيف

والنار ، ولن يملك السيف والنار .

عن العزل :

البيئة الحرة الكريمة ، هي التي تعيش في حضانتها الإنسانية الصحيحة ،

وهي التي يُنتظرُ منها أن تُنبِتَ النفوس القوية ، والعقول الذكية ، والأجسام

الفتية . ولن تجد جرائم الهوان المادّي والأدبيّ بقاء لها في مثل هذه البيئة .

ففي الجو الصّحوي ، والأرض المشمسة ، تموت الدّيدان ، وتنقرض الأوبئة .

لكن الاسترقاق السيامي والاقتصادي ، عدو البشرية الأول ، وسرطان
الأمم المذبذبة .

وفي ليله الطويل ، لا تلمح العقول أشعة المعرفة ، ولا تدرى الطباع
معنى الكرامة ، ولا تشرب النفوس حب الخير .

وأنت إذ تبحث — جاهدًا — عن الفرد الذي تعلم في الغرب فاخترع ،
أو الذي انتخب حاكمه ثم جاء دؤره هو فحكم ، إذ تبحث عن هذا الفرد
في ظل الاسترقاق السياسي والاقتصادي ، تجده تائبًا كاسف البال ، يحسب
أن وظيفته في الحياة لا تعدو العيش على هامش الفلاحة في أرض ملكته
ولم يملكها ، أو الاحتراف في أشغال بدائية لا تدرك إلا الكفاف .

ويسند هذا الهوان تدين فاسد ، خرج من الأرض ، ولم ينزل من السماء .
ولبته خرج من أرض نقية ، فكان فكراً سليماً ، بل خرج من
أرض سبخة ، فكان عبثاً رجيماً .

هذا التدين المكذوب على الله عز وجل ، كانت مهمته أن يخفف من
وقع الاستبداد السياسي ، والطغيان الرأسمالي على نفوس المظلومين والمحرومين .
حتى شاع بين الكثيرين أن الدين مخدّر للشعوب . وليس أبعد عن
الصدق من هذه المقالة الجائرة .

على أن الدين — وقد أصيب بهذه التهمة لأسباب شتى — بحاجة
إلى من يمسح عنه غاره ، ويرد إليه اعتباره ، ويصيح في المشرق والمغرب :
إن الدين عون الشعوب على نيل حقوقها ، وكسر خصومها وحفظ
حرياتهما ، وضمان كرامتهما .

بلى . . . ونحن موقنون بأنه في الوطن المغلوب على أمره ، النهوب
خير ، المتهن أهله ، لا عمل للدين — أولاً — إلا رد الحقوق ، ومنع
العقوق ، وكسر شوكة المعتدين ، وإذلال كبرياء الظالمين .

إن الاستبداد السياسى والاقتيات الرأسمالى ، والتدين الصناعى ، آفات قديمة فى الشرق .

وإنها لسفالة لا قرار لها . . . أن يسخر الإسلام فى إبقاء هذه الآفات .
إن بعض الجماعات المتدينة تحسب أن قوام الدين هو الإيمان بالغيب ، واليقين فى الآخرة ، والعبادات الخاشعة ، والتعاليم الروحية . . وطائفة أخرى من الأحوال الشخصية والأحكام الفردية المحددة .

وهى تنشط لخدمة الدين فى هذه الدائرة الضيقة ، ولو نجحت فى بلوغ أهدافها هذه مع بقاء الديكتاتورية السياسية ، والرأسمالية الاقتصادية ، فإن نجاحها وإخفاقها سواء .

وسيطر الدين تعاليم فى ورق ، ورقماً على الماء . ما بقيت الفرعونية الحاكمة ، والقارونية الكاذبة ، تفسد فى الأرض ، وتسفك الدماء .

كيف ينظرون إلينا ؟

لئن كانت الفوضى الاقتصادية قد صدعت البناء الاجتماعى للإسلام — كدين عام — وشوهت حقائقه الأولى فى عقول أبنائه وقلوبهم — كعقيدة خاصة — فقد أصابت كذلك الوضع السياسى للمسلمين ، بما جعلهم أمحوبة فى العالمين .

وإنك لتستطيع أن ترى مصداق ذلك ، فيما تقرأ وتسمع كل يوم ، مما يصيبنا فى محافل العالم الكبرى .

وقد كنا نرجو — وخصوصاً كثيراً — أن يدور الصراع بيننا وبينهم على أسس من الاحترام المتبادل .

أجل ، فقد يكون لك عدو تكرهه مواهبه على تقديره . وقد يكون لك صديق تكرهه تفاهته على تصفيره ! ! فأين — يا ترى — نزلنا العالم فيما ينشب بيننا وبين غيرنا من خلاف ؟

أنقل هنا كلمة كتبت على هامش السياسة الخارجية بصحيفة يومية ،
وفيهما الجواب على هذا السؤال :

« إن الشرق الأوسط ما زال موضع ازدراء الأمم الراقية ، رغم غناه
بالمواد الأولية الهامة ، ورغم مركزه الممتاز في عالم التجارة .

وسبب ازدرائه : أن الحكومات في الجزء الأكبر من رقعة الشرق ،
لا تهتم بمشروعات الإصلاح المنتجة ، قدّر اهتمامها بالمشروعات التي تعود على
الأقطاب ، بدعاية كبيرة ، أو شهرة واسعة ، أو نفوذ متسع النطاق

أما التعليم والرئ ، وإنشاء خزانات المياه لوقت القحط ، والانتقال من
زراعة المطر إلى زراعة الآبار ، ومشروعات توليد الكهرباء ، وصناعة الأسمدة ،
فإنها ما زالت تدرس منذ عشرات السنين ، ثم توضع على الرف ، ثم يعاد
درسها ونقض الغبار عنها ، لتعود مرة أخرى إلى الرف ، وهكذا حتى يئس
العالم الشرقي من كل دعاية تذايع أو تكتب في الصحف ، حول مكافحة الجهل
والمرض ، والأمية والحفاء .

ومن أعجب الأمور ، أن للشرق الأوسط مركزاً استراتيجياً ممتازاً .
ففي رقعته تقع أكبر الموانئ والطارات ، وسكك الحديد الضرورية لأي
دفاع أو هجوم .

والدول الغربية مقبلة على صراع رهيب ، سيكون لهذه الرافق فيه دور
خطير ، فهل استفدنا من هذا المركز الممتاز ؟ . والجواب على ذلك هو : كلا .
وسبب هذا المركز الضعيف ، أننا مختلفون فيما بيننا على أمور ثانوية ،
تاركين الدول الاستعمارية تستغل مواردنا الاقتصادية ، وقواعدنا الحربية ،
وطرق مواصلاتنا ، ومطاراتنا ، وموانئنا ، بدون أجر أو ثمن معقول .

بل بدون أي ميزة كبيرة نستفيد بها في معالجة تأخرنا الاقتصادي
والاجتماعي الحالي .

وإلى جوارنا دولة ضعيفة ناشئة ، مؤلفة من مليون ونصف مليون نسمة —
هي إسرائيل — فرضت على أسطول بريطانيا أن يخرج من قاعدة حيفا ،
فأخرجته وفرضت على السلاح الجوي البريطاني أن يخرج من مطار (اللد)
وغيره من المطارات الفرعية الأخرى فخرج ، وفرضت على الجيش البري
البريطاني أن يخرج من معسكرات صرفند ، وعكا ، وغزة ، وحيفا وغيرها فخرج .
أما الدول العربية التي تمثل خمسين مليوناً ، فإنها ما زالت متفرقة مختلفة ،
ولهذا تمجيز عن إخراج القوات البريطانية من الحجازية في العراق ، ومن
قواعدها في شرق الأردن ، ومن منطقة « فايد » . . .

بل أعجب من هذا كله أن لنا في بنك بريطانيا نحو ٣٠٠ مليون من
الأرصدة ، لا نعرف كيف نستردها منها ، ونطلبها قطرة بمد قطرة ، كأننا
نسألها إحساناً .

أما إسرائيل فقد عقدت مع بريطانيا اتفاقاً ، يسهل لها سبيل الحصول
على أرصدها الاسترلينية ، رغم أن مصر أهم لبريطانيا — بمواردها ومركزها
الحربي — من إسرائيل . . .

بل هذه هي مسألة « السودان » ، والإنجليز يعاملوننا فيه معاملة الأجانب ،
على حين يفرضون على أشقائنا سكان الجنوب أن يعاملوا الإنجليز معاملة الوثني
لأصنامهم ، ويحرمون عليه امتيازات يبيحونها للإنجليز ، بل يمنعونهم من
دخول أما كن بدخلها سادته الإنجليز . . .

ويزرع البريطانيون في الجزيرة قطناً يناقسون قطننا به ، ومع ذلك فإننا
ما زلنا نرفض الاتجار مع دولة كبيرة أخرى ، وما زلنا نعتمد في بيع قطننا
على (لا نكشير) . . .

هنا وهناك :

إننى أجزم بأن الأنظمة الاقتصادية السائدة فى الغرب ، تعتمد فى — بقائها — على قبول الشعوب لها واطمئنانها إليها .

ولو أنها كانت خالية من الزايا التى تجعلها كذلك لَسَقَطَتْ من زمان بعيد ، فإن المرتبة التى وصلت إليها حقوق الإنسان وحرىات الشعوب فى هذه البلاد ، لا تسمح لنظام ما أن يبقى طويلاً برغم أنف الذين يعيشون فى ظله ، على عكس الحال عندنا .

فإن الناس كثيراً ما تكون قلوبهم ضد الحكومات ، ولكن أعمالهم معها .
وقديماً قيل « الناس قلوبهم مع الحسين وسيوفهم مع أعدائه !! » .

وتلك الحال المنكرة ، هى بعض آثار البطش السيامى الذى سادنا فى القرون الوسطى ، ولا تزال بقاياه تترك فى نفوس الجماهير الاستكانة ، وتطبع الرأى العام فى أغلب أطوار يقظته ، بطابع الإنكار القلبي ، أو الاستنكار السلبي فحسب . . . لا يؤله ا .

ومهما اختلفت المذاهب الاقتصادية المنتشرة فى الغرب ، وتنوعت إلى رأسمالية ، أو اشتراكية ، أو شيوعية ، فإن هناك عاملاً مشتركاً بين هذه المذاهب كلها ، يجعل أصحابها يتمسكون بها ، أو لا يرون بأساً من الإبقاء عليها ، وهذا العامل مفقود فى الأحوال الاقتصادية التى تقوم بيننا .

وتستطيع أن تجد وجوهاً من الشبه القريب بين الحياة فى روسيا الشيوعية ، والحياة فى أمريكا الرأسمالية !! .

على حين تجد الصلة واهية ، أو منفية بين الرأسمالية فى أمريكا ، والرأسمالية فى الشرق الإسلامى وغير الإسلامى .

ففى أمريكا — كما فى روسيا — لا يعرف هذا الركام الغليظ من الجهل والفقر

والمرض ، ولا توجد البيئة التي تخلق الرذائل خلقاً ، وتطرد الفضائل طرداً .
وهناك لا تقيم الفوارق الآتية أى فاصل بين طبقات الأمة الواحدة .
فإن رئيس الولايات المتحدة ، جاء من طبقة الشعب ، التي جاء منها رئيس
جمهوريات الاتحاد السوفيتي

أما في مصر ، والهند ، والحجاز ، والعراق ، فالأمور تجري على النحو
الذي أسلفناه .

ولا يجوز أن نقارن بين رأسمالية الشرق ورأسمالية الغرب فإن البون شاسع
والمسافة بعيدة .

إن الأحوال الاقتصادية لا تزال في الشرق تحمل طابع عهد الإقطاع ،
ولا تزال المعاملة بين مواطن ومواطن مثله ، كالمعاملة بين الإنجليز والهنود ،
أو بين الأمريكان والزوج !! .

والإسلام لا يؤيد نظاماً اقتصادياً بعينه ، ولا يخاصم نظاماً اقتصادياً بعينه .
إنما يحارب ويسالم ، ما يكون من النظم ، بحسب ما يتولد منها ، وما ينشأ عنها ،
وما يصيب الشعوب من خيرها أو شرها .

إن الدين كالنسيج الخام ، يلبس الناس منه ما يحفظ أجسامهم ويزين هيئاتهم .
وقد تختلف طرائقهم في كيفية التفصيل وأسباب التزين ، ولكن لا يجوز
على أية حال أن يعروا عنه .

والأنظمة الاقتصادية العامة ، قد تختلف نظراتها وتقديراتها لمصالح الجماعة .
غير أن ذلك لا يعنى أن نطرح الدين جانباً ! فما قيمة الإنسانية إذا جحدت
ربها وتمردت على خالقها ؟ ؟ .

يجب أن ننتفع بالدين في بناء أمة تتوافر فيها التربية النفسية العميقة ،
والمعدالة الاجتماعية الشاملة ، والديمقراطية السياسية المنظمة ، وبذلك وحده
يأخذ الشرق الإسلامى طريقه إلى الحياة .

كلية الختام

لثقافة جيش غير منظور ، يصل إلى أهدافه المرسومة في سكينة وسلام .
وإني أود أن أسلح القارى الكريم بهذه الأفكار ، وأملى ألا يقف
عند حدود المطالعة العابرة . . . ثم الموافقة الباسمة . . .

فإن من الثقافات ما نعدّه ترفاً عقلياً ، ويكون حسب القارى منه أن
يقف هذا الموقف . . .

أما إذا تعلق الأمر بحقيقة دين كالإسلام ، ومستقبل أمة زحمت التاريخ
وشغلته قديماً وحديثاً كالمسلمين ، فالأمر أخطر مما نتصور !

هو عندئذ ضرورة مادية وأدبية ، تجعل من القارى شريكاً للمؤلف ،
وتحشداهما لخدمة قضية مشتركة ، يتقاسمان — جميعاً — أعباءها ونبعاتها !!
فلعل الذين يقرأون معى ، يقومون بهذا الحق ، ويمدون شعاع الفكرة ،
ويشاركون في إبلاغها الغاية ؟

فهرست

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
كلمة الناشر	٣	أوضاعنا الفلقة	٨٩
مقدمة الطبعة الثانية	٧	مقارنات	٩٠
مقدمة الطبعة الأولى	١٢	العدالة الاجتماعية بين إنجلترا والجزائر	٩٣
الطبقات المترفة والطبقات البائسة	١٧	الحجز المالي بسبب البذخ	٩٦
الترف والبؤس	١٨	مثل واحد لقاعدة مطردة	٩٧
سر هذا القسم	١٩	انتفاع الأمم بالإسلام	١٠٠
أوضاع معكوسة	٢٢	من وراء الحدود	٩٩
رأسمالية قديمة	٢٣	بعض ما عندنا	١٠٣
الصراع بين الخير والشر	٢٧	المشاكل العامة - المرض	١٠٥
القرآن والطبقات المترفة	٢٩	الفقر	١٠٧
ذكر إن نفعت الذكرى	٣٧	هل العلاج في الركاة	١١٢
هل للردائل أسباب اقتصادية	٣٩	تقييد الملكية	١١٥
السرقه	٤٣	دلالة المال المعنوية	١١٨
الزنا	٤٧	حق الناس في المال	١٢٥
التعطل	٤٦	الزكاة والضريبة	١٢٥
أمثلة وقاعدة	٤٨	زكاة المال وزكاة الدخل	١٣٠
مساومه واهمة	٤٩	أضرار التطبيق الخرفي لنظام الزكاة	١٣٢
هل لافضائل أسباب اقتصادية	٥٣	الأوضاع الاقتصادية	١٣٧
عزة النفس	٥٧	حقائق مؤسفة	١٤٠
التعلم	٦١	المجتمعات المنحطة لا يزدهر فيها دين	١٤٥
حسن الخلق	٦٣	ما الدين	١٤٧
شرق جديد	٦٤	رجال ورجال	١٤٩
ليس تفكيراً مادياً	٦٦	قيمة العقل في الدين	١٥٠
الاستعمار الداخلي يمهّد الاستعمار		نتائج محزنة	١٥٣
الخارجي	٦٩	لماذا	١٥٥
الدين والاستعمار	٧١	علة العمل	١٥٦
وقاية	٧٣	كيف ينظرون إلينا؟	١٥٨
أثر النزعة الطائفية في سياسة الحكومة	٧٨	هنا وهناك	١٦١
الأمم المزدهرة	٨٢	كلمة الختام	١٦٣
ضرورات	٨٦		

المؤلف

- ١ - الإسلام والأوضاع الاقتصادية .
- ٢ - الإسلام والمناهج الاشتراكية .
- ٣ - الإسلام المفترى عليه .
- ٤ - الإسلام والاستبداد السياسي .
- ٥ - تأملات في الدين والحياة .
- ٦ - من هنا نعلم .
- ٧ - التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام .
- ٨ - عقيدة المسلم .
- ٩ - خلق المسلم .
- ١٠ - فقه السيرة .
- ١١ - في موكب الدعوة .
- ١٢ - من معالم الحق .
- ١٣ - ليس من الإسلام .

تحت الطبع

- ١ - نظرات في القرآن .

